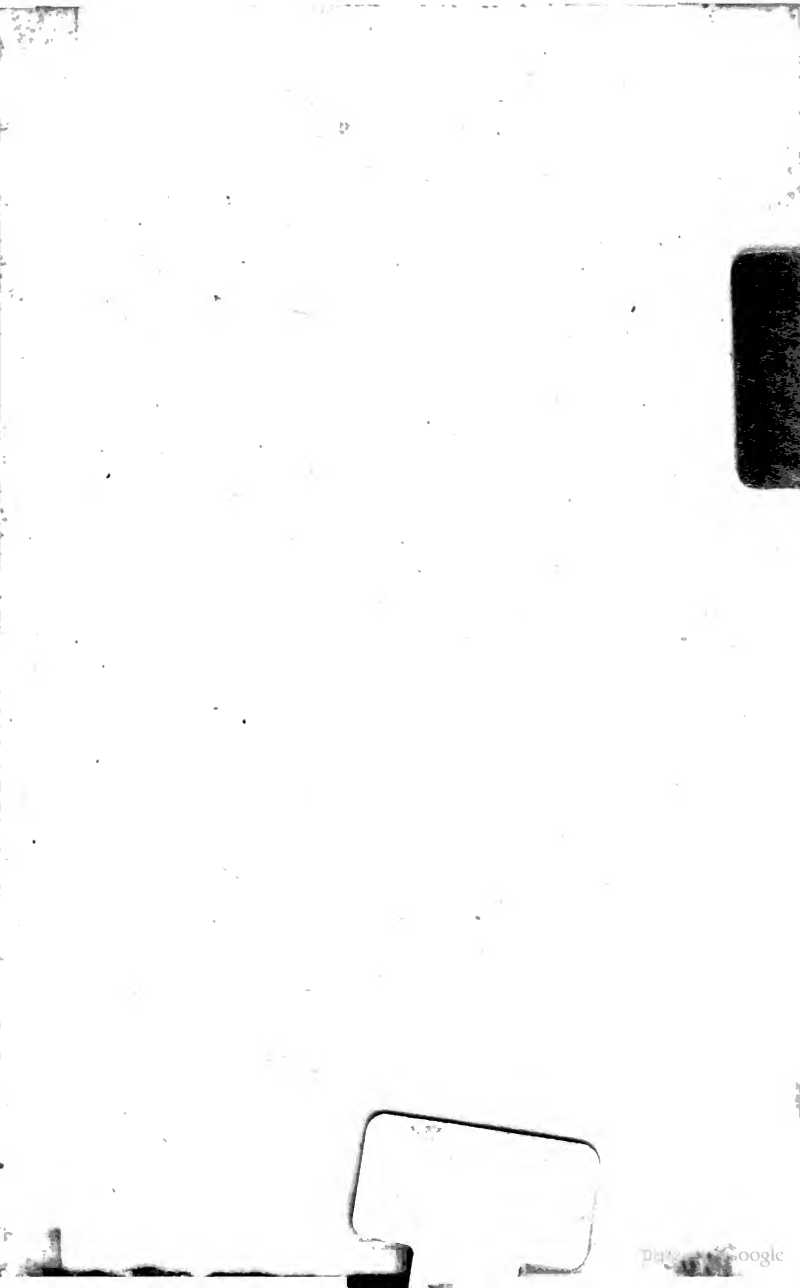

Digitized by Google

ا

اَلْفِعْلُ اَلْاِسْمُ اَلْحَرْفُ (١)

مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ (٢) وَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ، دَخَلَ أَسَدٌ بَيْنَ (٣) ثَوْرَيْنِ (٤)، لَمَّا مَرِضَ (٥) رَغِبَ طَبِيبًا، كُلُّ مَنْ (٦) تَرَكَ اَلذَّنْبَ (٧) وَعَمِلَ اَلصَّالِحَاتِ (٨) لَقَدْ أَيِسَ اَلْعَذَابَ، إِنْ كَثُرَ (٩) اَلْأَكْلُ وَقَدْ كَثُرَ اَلْغَمُّ، حَسُنَ وَجْهُهُ، كَبُرَ عَلَيْهِ (١٠) ذٰلِكَ، أُولٰئِكَ (١١) اَلَّذِينَ (١٢) لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ، هُوَ (١٣) بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، هُوَ خَيْرٌ لَهُ، مَا هُمْ بِضَارِّينَ (١٤) بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اَللّٰهِ، مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ (١٥)، مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ، إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ اَلظَّالِمِينَ، اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ اَلرَّحْمٰنِ (١٦) اَلرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ اَلدِّينِ، ذٰلِكَ (١٧) اَلْكِتَابُ لَا رَيْبَ (١٨) فِيهِ (١٩)، إِنَّكَ أَنْتَ اَلْعَلِيمُ اَلْحَكِيمُ، إِنَّ (٢٠) اَللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي ذٰلِكُمْ (٢١) بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ، لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولٰئِكَ

Digitized by Google

عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ (٣٢) مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ (٣٣) وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ (٣٤)، لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٣٥)، ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ، هٰذَانِ ٱلشَّخْصَانِ رَجُلٌ وَٱمْرَأَةٌ أَوْ رَجُلَانِ أَوِ ٱمْرَأَتَانِ (٣٦)، حَسْبُهُ جَهَنَّمُ (٣٧) وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ، لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحٰقَ كَانُوا (٣٨) هُودًا أَوْ نَصَارٰى، إِنَّ هُدَى (٣٩) ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَى، لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّ مَثَلَ عِيسٰى عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ،

٢

الفِعْلُ السَّالِمُ المَزِيدُ (١) فِيهِ

حَارَبَهُ وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ، اِحْتَفَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَسْكَرِهِ، مَلَّكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا، اِنْصَرَفَ عَنِ ٱلْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلَ عَلَيْهِمْ، مَكُثَ بُرْهَةً مِنَ ٱلدَّهْرِ، اِسْتَصْغَرَ أَمْرَهُمْ، تَعَاقَدَا عَلَى هٰذَا، أَنْقَذَ فَأَحْضَرَهُمَا وَشَاطَرَهُمَا بِمَالِهِ، اِسْتَعْمَلَ ٱلْعَقْلَ وَأَبْصَرَ ٱلْعَاقِبَةَ فَأَمِنَ ٱلنَّدَامَةَ، اِنْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ (٢)، تَرَكَ ٱلثَّوْرَ وَٱلْتَحَقَ بِٱلتَّاجِرِ، تَكَلَّفَ مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ، إِنَّ دِمْنَهُ اِنْطَلَقَ حَتّٰى دَخَلَ عَلَى ٱلْأَسَدِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، اِسْتَغْفَرَ إِلَى رَبِّهِ، لَمَّا قُدِّمَ لِلْقِصَاصِ تَقَدَّمَ ٱلنَّاسِكُ إِلَى ٱلْقَاضِي،

Digitized by Google

حَدَثَ مَا قُدِّرَ، مَنْ ذَا ٱلَّذِي غَالَبَ ٱلْقَدَرَ، خُولِطَ فِي عَقْلِهِ، صَدَّقَ بِمَا سَمِعَ وَٱنْخَدَعَ، ٱبْيَضَّ وَجْهُهُ وَٱسْوَدَّ يَدُهُ، سُلْحْفَاةٌ وَأَرْنَبٌ مَرَّةً تَسَابَقَا، تَقَاسَمُوا ٱلْمَالَ بَيْنَهُمْ، تَمَارَضَ ٱلْأَسَدُ، ٱلصَّادِقُ تُعَاظَمُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ، إِزْدَادَ وَجْهُهُ، إِبْهَارَ ٱللَّيْلُ،

٣

تَصْرِيفُ ٱلْفِعْلِ ٱلسَّالِمِ (١)

لَا يَثْقُلَنَّ ذٰلِكَ عَلَيْكَ، يَا نَفْسِي (٢) ٱنْظُرِي فِي أَمْرِكِ، أَلَا تَعْرِفِينَ نَفْعَكِ (٣) مِنْ ضَرِّكِ، وَٱللّٰهِ (٤) لَأَسْكُنَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ (٥) مَا ذَا يُصْنَعُ، ٱسْجُدُوا آدَمَ، يَا آدَمُ (٦) ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ، لَا تَقْرَبَا (٧) هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ، إِعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، لَا تَلْبِسُوا (٨) ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، أُقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ، زَعَمُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا (٩)، لَا يُقْبَلُ مِنَ ٱلنَّفْسِ شَفَاعَةٌ، يَا مَرْيَمُ (١٠) ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ، فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ، لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ (١١)، مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ، قُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا، لَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ، بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ، ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ، بَسَطْتَ (١٢) إِلَيَّ (١٣) يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي، لَا تَنْهَرْهُمَا، لَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ

Digitized by Google

شَرِيكًا، هٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا، لَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ، أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا، كَانَا يَنْطَحَانِ (١٤) يَقُرُونِهِمَا (١٥)، إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ، طَبَقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ، لَا تَكْتُبَانِ فِى هٰذَا ٱلْكِتَابِ، لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا (١٦)، مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ، لَعَنتُنَّ، لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ، لَوْ كَانَ (١٧) فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلٰهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا، لَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا، ٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ، رَبَّنَا (١٨) ٱغْفِرْ لَنَا ذَنْبَنَا، رَبِّ ٱنْصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ

٤

(١) تَصْرِيفُ الفعل السالم ٱلْمَزِيد فِيهِ

بُورِكْتَ (٢) مِنْ حَكِيمٍ نَاصِحٍ لِلْمَلِكِ، ٱلَّذِى يَسْتَخْرِجُ ٱلسِّرَّ مِنْ نَابِ ٱلْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ لِيُجَرِّبَهُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَيْسَ ٱلذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ، لَا يَصْطَلِعُ (٣) بِهٰذَا ٱلْأَمْرِ غَيْرُكَ، مَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَعْدَلَ (٤) أَنْ يُخَالِطَهُ ٱلرَّجُلُ بِنَفْسِهِ وَلَا يَدَّخِرَ (٥) عَنْهُ شَيْئًا وَلَا يَكْتُمَهُ سِرًّا، يُدَاخِلُنِى مِنْ مَوَدَّتِكَ سُرُورٌ لَا يَعْدِلُهُ شَىْءٌ، قَدْ يُقَالُ (٦) فِى أَمْرَيْنِ لَا يُجْمَلَانِ بِكُلِّ أَحَدٍ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُشَارِكَهُ فِى مُلْكِهِ وَٱلرَّجُلُ

Digitized by Google

أَنْ يُشَارِكَ فِي زَوْجَتِهِ، إِنَّ ٱلْفِيلَ ٱلْمُعْتَرَفَ (٧) بِفَضْلِهِ إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَلَفُهُ لَا يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يَمْسَحَ وَيَتَمَلَّقَ، رَاجِعْ عَقْلَكَ، ٱلرَّجُلُ ٱلشَّدِيدُ ٱلْقَوِيُّ لَا يُعْجِزُهُ ٱلْحِمْلُ ٱلثَّقِيلُ، ٱخْفِ بِهِ صَدِيقَكَ، أَخْرِجْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ (٨) ٱلظَّالِمِينَ، ٱدَّلَجْتُ (٩) ٱلسَّكْرَةَ فِي هِيئَةٍ مُنْكَرَةٍ (١٠)، إِنَّ مُصَاحَبَةَ ٱلسُّلْطَانِ خَطَرَةٌ وَإِنْ صُوحِبُوا بِٱلسَّلَامَةِ وَٱلْمَوَدَّةِ، وَقَفْنَا لِرَأْيِ وَٱجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ، تَبَاعَدْ مِمَّنْ لَا رُغْبَةَ فِيهِ، لَأَنْ تُعَذَّبَ فِي ٱلدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُعَذَّبَ فِي ٱلْآخِرَةِ، ٱحْمَرَّتْ خَجَلًا، لَأُتْبِعَنَّهُمْ (١١)، أَنْتَ رَجُلٌ لَا تَدَّخِرُ شَيْئًا، ٱسْتَعْمِلْ رَأْيَكَ وَلَا تَحْزَنْ لِقِلَّةِ ٱلْمَالِ، قَارِبْ عَدُوَّكَ بَعْضَ ٱلْمُقَارَبَةِ وَلَا تُقَارِبْهُ كُلَّ ٱلْمُقَارَبَةِ، ٱلَّذِي يُفْسِدُهُ ٱلْحِلْمُ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا ٱلْعِلْمُ، ٱلْعَقْلُ شَبِيهٌ بِٱلْبَحْرِ ٱلَّذِي لَا يُدْرَكُ غَوْرُهُ، قَوْمٌ يَسْتَصْغِرُونَ مَا يَرْتَكِبُونَ بِهِ مِنْ عَظِيمِ ٱلذُّنُوبِ (١٢) وَيَسْتَعْظِمُونَ ٱلْيَسِيرَ إِذَا خُولِفَتْ فِيهِ أَهْوَاؤُهُمْ (١٣)، أَمَرَ ٱلْأَسَدُ بِٱبْنِ (١٤) آوَى أَنْ يُخْرَجَ وَيُخْتَفَظَ بِهِ، زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ ٱصْطَحَبُوا (١٥) فِي طَرِيقٍ (١٦) وَاحِدَةٍ، أَخْبَرْتُمَانِي بِمَا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ، لَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، سَيَذَّكَّرُ (١٧) مَنْ يَخْشَى، يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ، بَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ، فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ، تَظَاهَرُونَ (١٨) عَلَيْهِمْ بِٱلْإِثْمِ، أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ،

Digitized by Google

اِسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ، أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ، مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَةِ اللّٰهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا، تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ، قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا، يَحْكُمُونَ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللّٰهِ، اصْطَنَعْتُكَ (١٩) لِنَفْسِي، اطَّهَّرُوا (٢٠)، أُدْخِلُوا نَارًا، انْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا، انْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ، انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ، سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢١)، تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ، تَنْقَلِبُونَ خَاسِرِينَ، انْقَلَبَ الْأَرْنَبُ إِلَى جُبِّ فِيهِ مَاءٌ غَامِرٌ فَاطَّلَعَتْ (٢٢) فِيهِ، اثَّاقَلْتُمْ (٢٣) إِلَى الْأَرْضِ، لَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِ أَحْدَوْثَ (٢٤) وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ،

٥

تَصْرِيفُ الْفِعْلِ (١) الْمَهْمُوزِ

مَا مَنَعَكَ أَلَّا (٢) تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ (٣) لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، آمَرَهُمْ (٤) فِي الشَّيْءِ، هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، أَتُحِبُّونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، افْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ، إِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، مُرْ (٥) لِي بِالْأُجْرَةِ، أُجِبْ مِنْكُنَّ أَيَّتُهَا الطُّيُورُ (٦)

Digitized by Google

أَنْ تَفَقَّوا عَيْنَيْهِ، ٱئْتَمَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، لَا تَسْأَلِي عَنْ أَمْرٍ إِنْ أُخْبِرْتِكِ
بِهِ لَمْ آمَنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ، ٱبْتَدَأَ مِنْ أَوَّلِهِ، إِنَّمَا نَبَأْتُكَ بِمَا فِيهِ
صَلَاحٌ لَكَ، إِنَّكَ قَدْ مَالَأْتَ ٱلنَّاسَ عَلَيْنَا، خُذْ (٧) مَعَكَ مِنَ ٱلْمَالِ مَا
تُحِبُّ، ٱلْعَاقِلُ لَا يَسْتَأْنِسُ إِلَى ٱلْعَدُوِّ ٱلْأَرِيبِ، أَنْبِئْنِي بِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ،
ٱللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ أَخْطَأْنَا، سَلْ (٨) نَبِيَّ (٩)
إِسْرَآئِيلَ، لَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، ٱلْمَآءَ بَرْدَهُ وَلَبْنَهُ يَسْتَأْصِلُ
مَا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ، جَعَلَ ٱلْغُرَابُ يَمُنُّ، يُضَاعِفُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ قَبْلُ، ٱنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ، إِنْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ (١٠) فِيهَا وَٱللّٰهُ
مُخْرِجٌ (١١) مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ، إِنَّهُ يَبْدَؤُ
ٱلْخَلْقَ، يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ، أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ، لَا
يَتَّخِذُونَ (١٢) ٱلرُّشْدَ سَبِيلًا، أَرْسَلْنَا ٱلشَّيْطَانَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يَؤُزُّهُمْ
عَلَى ٱلظُّلْمِ،

٦

(١) تَصْرِيفُ ٱلْمِثَالِ

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا، وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ (٢)
لَيْلَةً، أَلَيْسَ لِلْمَوْتِ تُولَدُونَ، صِفْ لِي ذٰلِكَ، إِذَا ٱنْفَصَلَ بِكُمْ
خُرُوجِي (٣) مِنْ هٰذَا ٱلْمَنْزِلِ فَٱجْتَمِعُوا إِلَيَّ، ٱللّٰهُمَّ (٤) تُولِجُ ٱللَّيْلَ

فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ، لَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا، رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ، مَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا، ٱلْوَاجِبُ عَلَى ٱلْمَلِكِ أَنْ يَتَّعِظَ، إِنَّهُ كَلَامٌ يَكْرَهُهُ سَامِعُهُ وَيَبْجَعُ عَلَيْهِ قَايِلُهُ، ٱسْتَيْقِظْ أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ، نَمْ عَنْكَ ٱلْحُمْقَ، وَجَدْتُهُ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ(٥)، ٱلسِّرُّ إِذَا ٱسْتُودِعَ ٱلْلَّبِيبَ ٱلْحَافِظَ فَقَدْ حُصِّنَ، كُنْتُ أَرْصُدُ ٱلنَّاسِكَ حَتَّى يَخْرُجَ وَأَثِبَ إِلَى ٱلسِّلَّةِ فَلَا أَدَعُ فِيهَا طَعَامًا إِلَّا أَكَلْتُهُ، لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ (٦) ٱلنَّاسِ عَلَى حَيٰوةٍ، مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، لَا تَذَرِنِي فَرْدًا، ضَعُوا ٱلْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا، أُورِثْتُمْ (٧) ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، رَبِّ (٨) أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَٰلِدَيَّ (٩)، ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ، ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَحْمَتِي، لَا يَيْأَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ، أَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَايَ(١٠)، مَعَهُ رَجُلٌ قَدْ وَاطَّأَهُ عَلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ،

Digitized by Google

تَصْرِيفُ ٱلْفِعْلِ ٱلْأَجْوَفِ (١)

إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، ٱسْتَطَابُوا ذٰلِكَ ٱلْمَكَانَ (٢) وَٱسْتَوْطَنُوهُ، أَطَلْتُ ٱلْفِكْرَةَ فِي هٰذَا ٱلْأَمْرِ، لَمْ تَحْتَجْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْتَ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، لَئِنْ مُتُّمْ (٣) لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ، لِنْتَ لَهُمْ، إِنْ زِدْتُمْ زِدْنَا وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا، قُولُوا مَا تُرِيدُونَ، تَجَاوَلَا سَاعَاتٍ مِنَ ٱلنَّهَارِ وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ، مِنَ ٱلنَّارِ لَا تَخَافُونَ وَإِلَى ٱلْجَنَّةِ لَا تَشْتَاقُونَ، تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ، لَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ (٤) إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ، يَا حَبِيبَةَ قَلْبِي نَامِي فَقَدْ بِتِّ سَاهِرَةً، لَوْ أَنَّ رَجُلًا وُهِبَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِمَا فِيهَا لَمْ يَكُ (٥) يَنْتَفِعُ مِنْ لُبِّهِ إِلَّا بِٱلْقَلِيلِ، لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ، لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا، ٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ، إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا (٦) كُفْرًا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ، سِرْ بِٱلسَّلَامَةِ عَلَى عَوْنِ ٱللَّهِ إِلَى حَضْرَةِ ٱلْمَلِكِ، لَمْ أَزْدَدْ فِي أَمْرِ ٱلنِّسَاءِ نَظَرًا إِلَّا ٱزْدَدْتُ فِيهِ رَغْبَةً ثُمَّ تَخَوَّفْتُ أَلَّا أَصْبِرَ عَلَى عَيْشِ ٱلنَّاسِكِ، إِنَّ ٱلَّذِي تَعَوَّدَ عَمَلَ ٱلْبِرِّ فَبَانَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَإِنْ أُصِرَّ بِهِ، أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ ٱلطُّيُورُ إِلَى ٱلْعُنْقَاءِ وَهِيَ بِهَا، إِنَّكُنَّ طَيْرٌ

Digitized by Google

مِثْلَنَا فَأَعْنَنَا، خَرَجَ الَى ٱلسَّفِينَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلنَّاسِ يُرِيدُونَ يَتَبَاعُونَ
مِمَّا فِيهَا مِنَ ٱلْمَتَاعِ فَجَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ ٱلْمَرْكَبِ (٧)،
كَانَ ٱلصَّيَّادُونَ (٨) كَثِيرًا (٩) يَتَدَاوَلُونَ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانَ يَصِيدُونَ
فِيهِ ٱلْوَحْشَ، لَا تُخَافِي هٰذَا ٱلْإِنْسَانَ، اِحْتَلْ لِنَفْسِكَ، لَنْ أَنَالَ ٱلْفَرَحَ
مَا عِشْتُ، قُومِي وَٱدْخُلِي عَلَيْهِ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللّٰهَ، قَدْ بَيَّنَّا (١٠) ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ،
أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ، مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ، إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ (١١)
يَتَطَيَّرُوا (١٢) بِمُوسَى، أَقْبَلْنَ إِلَيْهِ فَٱسْتَشَرْنَهُ، لَا تَهَابَنَّ مِنْهُ شَيْءٍ،
أَصْطَادَا مَا فِي ٱلْأَجَمَةِ، هَيِّجَ ٱلْأَسَدُ، بِتِ ٱللَّيْلَةَ عِنْدَنَا، تَزَوَّدُوا فَإِنَّ
خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَى (١٣)، مَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، لَا يَؤُدُهُ
حِفْظُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ، ٱللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ (١٤)، أَسَاءَتِ
ٱلسِّيرَةَ (١٥)، أُعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ وَلَا تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتَ بِهِ،
لَبِسَتْ تِلْكَ ٱلْكِسْوَةَ وَمَرَتْ بَيْنَ يَدَيَ (١٦) ٱلْمَلِكِ وَتِلْكَ ٱلثِّيَابُ تُضِيءُ
عَلَيْهَا مَعَ نُورِ وَجْهِهَا كَمَا تُضِيءُ ٱلشَّمْسُ، إِنَّ ٱلَّذِي مَنَحَنِي ٱللّٰهُ
وَعَبَّاهُ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ، كَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ
مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، لَوْ دَعَوْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَنَا
مُعَانَدَتُهُ، جِيءَ بِٱلنَّاسِ، أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللّٰهَ وَحْدَهُ، رُبَّمَا أَعْوَجَجْتَ
بَعْدَ مَا ٱسْتَقَمْتَ، ذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ،

Digitized by Google

تَصْرِيفُ ٱلْفِعْلِ ٱلنَّاقِصِ (١)

إِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ، سَمِعْتُمْ بِي لَأَعْرِفَنَّهُمْ، كَيْفَ لَا يَسْتَحْلِي ٱلرَّجُلُ مَرَارَةً قَلِيلَةً تَعْقُبُهَا حَلَاوَةٌ طَوِيلَةٌ، صَافِ ٱلْخَلِيلَ وَنَاصِفِ ٱلْمُخَيِّلَ، أُلْقِيَ فِي عُنُقِهِ حَبْلٌ وَٱنْطُلِقَ بِهِ إِلَى ٱلسِّجْنِ، إِنَّ ٱلْعَاقِلَ لَا يَخْفَى فَضْلُهُ وَإِنْ عَمَّ أَخْفَاهُ، إِنَّمَا سُمِّيَ ٱلصَّدِيقُ صَدِيقًا (٢) لِمَا يُرْجَى مِنْ نَفْعِهِ، إِنَّ ٱلْعَدُوَّ (٣) ٱلدَّلِيلَ ٱلَّذِي لَا نَاصِرَ لَهُ أَقَلُّ أَنْ يُسْتَبْقَا، ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا، أَبْعَثُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، تَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا، لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، حُوشِيتَ أَنْ تَنْسَى مَا قُلْتَ بِٱلْأَمْسِ، مَنْ تُرِيدُونَ أَنْ تَقْتُلُوا سَمَوْهُمْ لِي، طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ، ٱلْحِكْمَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى، ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ، أَعَلِمْتَ مَا تُبْدُونَ، أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَى، ٱسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ، مَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى، لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ، لَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي، يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ، لَنْ تَرْضَى عَنْكَ ٱلنَّاسُ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّيْهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، تَلَقَّى آدَمُ مِنْ

Digitized by Google

رَبِّهِ كَلِمَاتٍ، أَعْفِنِي عَنْ هَذَا ٱلْأَمْرِ، مَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ فَلَا تَصْنَعْهُ لِغَيْرِكَ، إِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، مَنْ يَتَعَدَّ(٤) حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا، مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٥)، بَلَوْتُ رَأْيَهُ وَمَكِيدَتَهُ وَقُوَّتَهُ (٦) فَٱسْتَبَانَ لِي أَنَّ ذَلِكَ يَؤُولُ مِنْهُ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ، إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ،

٩

تَصْرِيفُ ٱلْفِعْلِ ٱلْمُضَاعَفِ (ٱلْأَصَمِّ) (١)

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ (٢) سَنَةٍ، لَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ، لَا يَغُمَّنَّكَ مَا تَرَى، إِنَّ ٱلْعِلْمَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَمَلِ، إِنِّي لَمْ أَرُدَّ (٣) أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ قَطُّ، وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، كَيْفَ ذَلِكَ دُلَّ عَلَيْهِ، كُفَّ (٤) عَنِّي ٱلظَّالِمِينَ، ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ، إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ، لَمْ يَحُجَّ خَلِيفَةٌ (٥) مَاشِيًا غَيْرُهُ، لِمَا تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، ٱلنَّارُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ، ٱقْصُصْ عَلَيَّ ٱلْخَبَرَ، لَمْ يَشْكُوا فِي قَوْلِهِ، لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا، يَا أَخِي لَا تَغْتَمَّ (٣)، أَمَرَ ٱلْقَاضِي أَنْ يُقْتَصَّ

Digitized by Google

مِنْهُ، أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱللَّيْلِ، إِتَّبِعُونِي (٧) يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ، إِنَّمَا
أَسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا، أَعِدِّي لِي زَادًا، أَرْبَعَةُ (٨)
أَشْيَاءَ لَا يُسْتَقَلُّ قَلِيلُهَا ٱلنَّارُ وَٱلْمَرَضُ وَٱلْعَدُوُّ وَٱلدَّيْنُ، كَيْفَ تَدِلَّانِنِي
عَلَى كَنْزٍ، إِسْتَعِدَّ عَلَيَّ، لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ صَاحِبَهُ نَصِيحَتَهُ وَإِنِ
ٱسْتَقَلَّهَا، ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، مَنْ يَرْتَدِدْ (٩) مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَيَمُتْ (١٠)، مَا يُضِلُّ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ، ٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ،
إِضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ ٱلنَّارِ، مَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ (١١)، إِنْ يَتَحَاجُّونَ
فِي ٱلنَّارِ، لَأُضِلَّنَّهُمْ، أَلْحِي عَلَيَّ بِٱلسُّؤَالِ،

١٠

تَصْرِيفُ ٱلْفِعْلِ ٱلنَّاقِصِ ٱلْمَهْمُوزِ (١)

يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً (٢)، قُولُوا
آمَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَمْ أَرَ فِي ٱلنَّاسِ رَجُلًا هُوَ
أَرْصَنُ (٣) مِنْكَ عَقْلًا (٤)، ٱلْمَكْرُ وَٱلْخَدِيعَةُ لَا يُؤَدِّيَانِ إِلَى خَيْرٍ،
فَلَمَّا (٥) سَمِعَ خُوَارَ ٱلثَّوْرِ كَانَ مُقِيمًا مَكَانَهُ (٦) لَا يَبْرَحُ ولا
يَنْشِطُ بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى يَدِ جُنْدِهِ، عَلِمَ أَنَّ
ٱلْأَسَدَ إِنْ لَمْ يَرَ مِنَ ٱلثَّوْرِ ٱلْعَلَامَاتِ ٱلَّتِي كَانَ ذَكَرَهَا لَهُ ٱتَّهَمَهُ
وَأَسَاءَ بِهِ ٱلظَّنَّ، أَرِينِي مَوْضِعَ (٧) هٰذَا ٱلْأَسَدِ، كَانَ بِقُرْبِهِمَا فِي

Digitized by Google

السَّاجِنِ فَهُدٌ مُعْتَقَلٌ (٨) يَسْمَعُ كَلَامَهُمَا وَلَا يَرَيَانِهِ، أَمَرَ الْقَاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَهْ وَأُتِيَ بِهِ، أَنَا لَازِمٌ بَابَكَ حَتَّى (٩) تُوَاخِيَنِي، أَلَيْسَ مِنْ سَفَهِي الْتَكَلُّمُ (١٠) فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ لَا أَسْتَشِيرُ فِيهِ أَحَدًا وَلَا أَرْتَئِي فِيهِ، قَدْ يَنْبَغِي لَنَا نَحْزَنُ مَعَكَ وَنُؤَاسِيكَ بِمَالِنَا، إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، لَيَأْتِيَنَّهُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً (١١)، لَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا، الَّذِينَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ (١٢)، لَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّٰهُ، آتُوا الزَّكٰوةَ، مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، اللّٰهُ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ، إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، خُذْ مَا آتَيْتُكَ، رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا،

١١

تَصْرِيفُ الْفِعْلِ اللَّفِيقِ (١) الْمَفْرُوقِ

هَلْ (٢) يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، اتَّقُوا النَّارَ، أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ، انْطَلَقَ هُوَ وَصَاحِبُهُ (٣) حَتَّى وَافَى الشَّجَرَةَ، اتَّقِ اللّٰهَ، أَوَلَيْسَ (٤) الْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَنْقَلِبُ فِي عَذَابِ الدُّنْيَا مِنْ حَيْثُ يَكُونُ جَنِينًا إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ حَيَاتَهُ، أَيْنَمَا تُوَلُّوا

Digitized by Google

فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ، أَعْيَا أَمْرُهُ، قِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ، ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ، أَحَدُ ٱلْحَازِمِينَ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ ٱلْأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ بِهِ وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ شُعَاعًا وَلَمْ تَعْيَ بِهِ حِيلَتُهُ (٥) ٱلَّتِي يَرْجُو بِهَا ٱلْمَخْرَجَ (٦) مِنْهُ، كَانَ ٱلْحُبُّ قَدْ أَمَرَ أَبَاهُ أَنْ يَذْهَبَ فَيَتَوَارَى فِي ٱلشَّجَرَةِ، أَوْلِ ٱلْجَمِيلَ وَوَالِ ٱلْخَيْرَ، مَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ ٱلْحَكِيمِ وَيُكْرِمْهُ عُدَّ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ، لَوْ أَنَّهُمُ ٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ خَيْرٌ، كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَانَا فِي ٱلْجِدِّ، لَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ، إِنَّ ٱلْمَرِيضَ ٱلَّذِي قَدْ عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوَ بِهِ لَمْ يُغْنِ عِلْمُهُ بِهِ شَيْئًا، عُوا كَلَامِي، لَا تَزَالُ تَدُورُ وَتَدْأَبُ ٱلْحُدَاةُ حَتَّى تَعْبَا وَتَعْطَبَ، أَمَرَ بِٱلْغُرَابِ أَنْ يُكْرَمَ وَيُسْتَوْصَى بِهِ خَيْرًا، إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، ٱسْتَحَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى صَاحِبِهِ بِغَيْرِ طَعَامٍ، إِذَا عَرَفَ ٱلْمَلِكُ مِنَ ٱلرَّجُلِ أَنَّهُ قَدْ سَاءَهُ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ وَٱلْحَالِ فَلْيَصْرِفْهُ، لَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، كَانُوا يَأْوُونَ فِي رَأْسِ ٱلْجَبَلِ،

Digitized by Google

١٢

فِعْلُ لَيْسَ وَأَفْعَالُ ٱلْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَأَفْعَالُ (١) ٱلتَّعَجُّبِ

لَسْتَ بِصَاحِبِ (٢) ٱلسُّلْطَانِ، لَيْسَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلظُّلْمَ، مَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرَهُ عِنْدَنَا، مَا أَرْضَانِي بِهِ إِذَا كَانَ كَمَا وَصَفْتَ، بِئْسَ ٱلْخِيلَةُ ٱخْتَلْتَ، أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ، حَبَّذَا دَارًا قَضَى ٱللَّهُ أَنَّهَا يُجَدَّدُ فِيهَا كُلُّ عِزٍّ وَلَا يُبْلَى، لَسْنَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمَرْتَبَةِ، إِنْ تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، أَكْرِمْ بِهِ أَصْغَرَ رَاقَتْ صُغْرَتُهُ، مَا أَعْجَزَ مَقَالَكَ وَمَا أَخْطَأَ رَأْيَكَ وَأَبْعَدَكَ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ، لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَيْهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، لَسْتُمْ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ، حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ، أَبْغِضْ بِهِ مِنْ كَاتِبِ مَاجِ (٣)، مَا أَعْظَمَ يَدَكَ عِنْدِي،

١٣

أَسْمَاءُ ٱلْفِعْلِ ٱلسَّالِمِ

دَعَا ٱلْقَلْبَ إِلَى بَنِي آدَمَ مَا فِي طَبْعِهِ مِنَ ٱلْحِرْصِ وَٱلشَّرَهِ وَٱلْبُخْلِ، لَنْ تَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ، إِنَّ ٱلْقَسَّ رُبَّمَا نَبَّهَ صَاحِبَهُ

مِنْ نَوْمِهِ (٢) بِرَكْضِهِ بِرِجْلِهِ حِذْرًا عَلَيْهِ مِنْ عَدُوٍّ (٣) أَوْ سَبُعٍ، يَظْلِمُونَهُمْ كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَرْصُدُونَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، ٱللّٰهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ، ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ كَافَّةً (٤)، ٱللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ٱذْكُرْ عَنِ ٱلتِّرْحَالِ لِلْجَبَّانِ (٥)، ٱلْزِمِ ٱلسُّكُوتَ فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً وَتَجَنَّبِ ٱلْكَلَامَ ٱلْفَارِغَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ ٱلنَّدَامَةُ، مَا ٱللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْمًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ، ٱعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحُسْنِ ٱلْعَمَلِ، ٱلْخُصُومَةُ تُنْتِجُ ٱلْعَدَاوَةَ (٦)، يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (٧) وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، مَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيًّا (٨) مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ، كَيْفَ أَذْهَبُ إِلَى فُلَانٍ مَعَ عَيْبِ خِلْقَتِي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ سُخْرَةً، مَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ، يَجْعَلُ ٱللّٰهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قَلْبِهِ، مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا، أَضْعَفُ (٩) ٱلنَّاسِ مَنْ ضَعُفَ عَنْ كِتْمَانِ سِرِّهِ، إِنَّ مِنْ فَسَادِ شَيْءٍ يَكُونُ صَلَاحُ شَيْءٍ آخَرَ (١٠)، لَهُمُ ٱلْبُشْرَى فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ، ٱلنِّسْيَانُ خَيْرٌ مِنَ ٱلتَّذَكُّرِ، أَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرٰيهُمْ فِي ٱلسَّاعَةِ، رَحِيلُ ٱلْحَبِيبِ شَقَّ قَلْبِي، رَامَتِ ٱلرُّجْعٰى،

Digitized by Google

أَسْمَاء الفِعْلِ المَزِيد فِيه (١)

عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَتِمُّ بِٱسْتِفْرَاغِ ٱلْعَقْلِ وَإِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ، إِزْدَادَ ٱلْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا، إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، ٱلْمُنَاظَرَةُ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْخُصُومَةِ، كَانَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ رَجُلاً ذَا (٢) تَدْبِيرٍ وَتَجْرِبَةٍ، أَفَعَلْتَ ذٰلِكَ ٱسْتِصْغَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَٱحْتِقَارًا لِشَأْنِي، ٱلْمَاءُ إِذَا دَامَ ٱتِّحَادُهُ عَلَى ٱلْحَجَرِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى يَنْقُبَهُ، مَنْ يَجْزِ بِٱلْخَيْرِ خَيْرًا وَبِٱلْإِحْسَانِ إِحْسَانًا إِلَّا ٱللّٰهُ، جَعَلَ هٰذَا ٱلْكِتَابَ تَبْصِرَةً لِأُولِي ٱلْفَهْمِ وَٱلْفِطَنِ وَتَذْكِرَةً لِمَنْ جَدَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حَسَنٍ، أَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَهُ، لَقَدْ أَكْثَرْتَ ٱحْتِجَاجِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ وَتَسَلُّطِكَ بِلِسَانِكَ، نَجَّيَا بِأَمْطَلَاحِهَا جَمِيعًا مِنَ ٱلْوَرْطَةِ، ٱلْعَاقِلُ يُصَانِعُ عَدُوَّهُ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَيْهِ وَيُبْرِيهِ مِنْ نَفْسِهِ ٱلْإِسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ بُدًّا، لَا تَمْنَعُ ذَا ٱلْعَقْلِ عَدَاوَةٌ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ مِنْ مُقَارَبَتِهِ وَٱلْإِسْتِنْجَادِ بِهِ، مَا دَعَاكُمْ إِلَى جَزِيرَتِنَا مِنْ غَيْرِ مُرَاسَلَةٍ قَبْلَ ذٰلِكَ، رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ، إِنَّمَا ٱلْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْتِمَاسَ مَا لَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، ٱلْجَمْعُ وَٱلْإِدِّخَارُ وَخِيمُ ٱلْعَاقِبَةِ،

Digitized by Google

أَسْمَاءُ الْفِعْلِ الْغَيْرِ سَالِمِ (١)

ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا، ظَلَمْتَ نَفْسَكَ بِاتِّخَاذِكَ الْعِجْلَ، لَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ، مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، هٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا، لَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيرَةِ، أَيُّ مُرُوَّةٍ لَهُمْ وَأَيُّ فُتُوَّةٍ فِيهِمْ، أَيْنَ الْمَفَرُّ وَالْخَلَاصُ مِنَ الْقَضَاءِ إِلَّا بِالصَّلٰوةِ وَالدُّعَاءِ، مِنْ أَيْنَ لَكُمُ اسْتِوَاءُ الْبِنْيَةِ، حَيُّوا الْمَلِكَ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ، الْوَاجِبُ عَلَى الْعَلِيمِ تَأْدِيبُ الْمَلُوكِ بِحِكْمَتِهِ لِيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُعْوِجَاجِ، عَظُمَتْ مِنْكَ الْبَلِيَّةُ، أُوتِينَا النُّبُوَّةَ وَالرِّيَاسَةَ، لِكُلِّ عَمَلٍ ثَمَرَةٌ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، مَنَعَهُ مِنَ الْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَكَلَّمْتَ اتِّقَاءَ مَا لَمْ أَتَّقِ، الْمَوَدَّةُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَرِيعٌ اتِّصَالُهَا بَطِيءٌ انْقِطَاعُهَا، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَوَاصُلٌ، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِتْيَانَكَ، لَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَسْتَخُونَهُ بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِيَّاهُ وَائْتِمَانِهِ، اتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللهِ، مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ (٢) نُصْلِيهِ نَارًا، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، لَا تَتَّبِعُوا الْهَوٰى، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ (٣) بِهِ، تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوٰى

وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ، إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، ٱلرَّأْيُ ٱلصَّوَابُ لَا يُنْتَجُ إِلَّا بَعْدَ ٱلتَّثَبُّتِ وَٱلتَّأَنِّي وَٱلرَّوِيَّةِ وَٱلْإِعْتِبَارِ بِأُمُورِ ٱلْمَاضِيَةِ، أَنْتَ أَعْدِلْ بِأَنْ تُعْطَى سُؤْلَكَ، وَإِنِ ٱجْتَهَدَ ٱلْإِنْسَانُ فِي ٱلتَّوَقِّي مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَخَافُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ ٱلْهَلَاكَ لَمْ يُغْنِ ذٰلِكَ عَنْهُ شَيْئًا وَرُبَّمَا عَادَ ٱجْتِهَادُهُ فِي تَوَقِّيهِ وَحِذْرِهِ وَبَالًا عَلَيْهِ، يَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ ٱلْعِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ بِعِظَةِ نَفْسِهِ، ٱلِٱرْتِفَاعُ إِلَى ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلشَّرِيفَةِ شَدِيدٌ وَٱلْإِحْتِفَاظُ مِنْهَا فَيْنٌ، أَثِقُ بِكَ أَنْ تَعْرِفَ نَصِيحِي وَإِثْثَارِي إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي، ٱلْعَاقِلُ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ قَبْلَ تَمَامِهِ وَوُقُوعِهِ، لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ لِقِلَّةِ حَيَائِكَ وَكَثْرَةِ قِحَتِكَ وَسُرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ، ٱلْعَاقِلُ وَإِنْ كَانَ وَاثِقًا بِقُوَّتِهِ فَلَا يَحْمِلْهُ ذٰلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلِبَ ٱلْعَدَاوَةَ عَلَى نَفْسِهِ ٱتِّكَالًا عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ، ٱصْحَبِ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْقَرِيبَ بِٱللِّينِ وَٱلْمُوَاتَاةِ، ٱللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ، أَحَلَّ ٱللّٰهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا،

١٦

أَسْمَاءُ ٱلْمَرَّةِ ٱلنَّوْعِ ٱلزَّمَانِ وَٱلْمَكَانِ ٱلْكَثْرَةِ ٱلْآلَةِ وَٱلْوِعَاءِ (١)

ٱلْكَلْبُ إِذَا رَأَى سِنَوْرَةً قَدْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ إِنْسَانٍ حَمَلَ

Digitized by Google

عَلَيْها حَمْلَهُ، ٱلْعِلْمُ كَٱلشَّجَرَةِ وَٱلْعَمَلُ فِيهِ كَٱلثَّمَرَةِ، ٱلْعَقْلُ مِفْتَاحُ كُلِّ سَعَادَةٍ، لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مَجَالٌ، لَقَدْ أَدْرَكَنِي ٱلْحِرْصُ عَلَى كِبَرِ سِنِّي حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ مَوْرِطٍ، أَلْقَى شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ، رَأَوْا يَرَاعَةً تَطِيرُ كَأَنَّهَا شَرَارَةُ نَارٍ، لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ، لِلّٰهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ، مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّالِمِينَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً، لَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ، إِلَى ٱللّٰهِ ٱلْمَصِيرُ، دَخَلَ بِهِ إِلَى ٱلْمَطْبَخِ، كَانَ مَرْعَى ٱلْجَمِيعِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ، دَخَلَ هُوَ وَٱبْنُهُ إِلَى مَطْبَخَةٍ، لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ، شَرَى جَبَلٌ وَهُوَ مَأْشَدَةٌ، ٱلْكِتْبَةُ إِحْسَانٌ عَظِيمٌ مِنَ ٱللّٰهِ، جَعَلَ يَلْعَقُ لُعْقَةً بَعْدَ لُعْقَةٍ،

١٧

ٱلصِّفَةُ وَٱسْمُ ٱلتَّفْضِيلِ (١)

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ (٢) مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، كَانَ ٱلْمَلِكُ حَكِيمًا عَادِلًا كَرِيمًا سَمْحًا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ إِذَا عِبْتَ ٱلْمَصْنُوعَ فَقَدْ عِبْتَ ٱلصَّانِعَ، يَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّسُولُ رَجُلًا عَاقِلًا حَسَنَ ٱلْوَجْهِ بَلِيغَ ٱلْكَلَامِ كَتُومًا لِلسِّرِّ،

Digitized by Google

لَا أَصْلَحَ لِهٰذَا ٱلْأَمْرِ لِأَنِّي غَضُوبٌ ضَجُورٌ وَثَّابٌ فَرَّارٌ غَدَّارٌ، سُبْحَانَ (٣)
ٱللّٰهِ ٱلْحَنَّانِ ٱلْمَنَّانِ ٱلسُّبُّوحِ ٱلْقُدُّوسِ، ٱللّٰهُ لَيْسَ بِظَلَّامٍ، مَنْ يُطِعِ
ٱللّٰهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ
وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقًا، لَا تُثِيرُوا ٱلْعَدَاوَةَ ٱلْقَدِيمَةَ
ٱلْمَرْكُوزَةَ فِي ٱلطِّبَاعِ وَٱلْجِبِلَّةِ (٤) فَإِنَّهَا كَٱلنَّارِ ٱلْكَامِنَةِ فِي ٱلْحَجَرِ، أَحَدُ
سَيِّدِ ٱلْحَبَّازِينَ يَدُمُّ دِمْنَهُ، ٱلْأُخْرَى بِكَ أَنْ لَا تَكُونَ دَبَّاغًا وَلَا
حَجَّامًا، مَا مِنَّا إِلَّا مَنْ أَصْبَحَ قَتِيلًا أَوْ جَرِيحًا أَوْ مَكْسُورَ ٱلْجَنَاحِ أَوْ
مَنْتُوفَ ٱلرِّيشِ أَوْ مَقْطُوفَ ٱلذَّنَبِ، إِنَّ ٱلْكَرِيمَ لَا يَكُونُ إِلَّا شَكُورًا
غَيْرَ حَقُودٍ، رُبَّ (٥) صَدَاقَةٍ ظَاهِرَةٍ بَاطِنُهَا عَدَاوَةٌ كَامِنَةٌ، رَجَعَ إِلَى
قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا، إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ، ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ إِذْ
تُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ، تَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَوْلٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا،
ٱخْتَصَرَ هٰذَا ٱلْكِتَابَ ٱلشَّيْخُ ٱلْعَلَّامَةُ أَبُو مُحَمَّدٍ، لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى
ٱلْمَلِكِ أَضَرَّ وَلَا أَفْسَدَ لِأَمْرِهِ مِنَ ٱلْمُسْتَأْمَنِينَ مِنْ جُنْدِهِ إِلَى عَدُوِّهِ،
ٱلدِّيكُ هُوَ صَاحِبُ ٱللِّحْيَةِ ٱلْحَمْرَاءِ ٱلْأَحْمَرُ ٱلْعَيْنَيْنِ، إِنَّكَ تَرَى مَا
كَانَ أَصْغَرَ جُثَّةً مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَأَضْعَفَ بِنْيَةً وَأَقَلَّ حِيلَةً كَانَ أَرْوَحَ
بَدَنًا وَأَرْبَطَ جَأْشًا وَأَسْكَنَ رَوْعًا فِي دَفْعِ ٱلْمَكْرُوهِ مِنْ غَيْرِهَا وَكَانَ
أَطْيَبَ نَفْسًا وَأَقَلَّ أَضْطِرَابًا فِي طَلَبِ ٱلْمَعِيشَةِ وَجَرِّ ٱلْمَنْفَعَةِ وَأَخَفَّ
مُؤْنَةً مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ جُثَّةً وَأَقْوَى بِنْيَةً وَأَكْثَرُ حِيلَةً، هَلْ تَرَى مَنْ

Digitized by Google

يَصْلُحُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْحَيَوَانَاتِ أَنْ نَبْعَثَهُ إِلَى فِنَاكَ لِلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ أَكْثَرَهَا صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ خُرْسٌ، إِذَا ٱسْتُوجِبَ ٱلْقَتْلَ فَالتَّثَبُّتُ فِي أَمْرِهِ أَوْلَى، زَعَمُوا أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ الْيُسْرَى أَصْغَرُ مِنْ عَيْنِهِ الْيُمْنَى، وَهِيَ لَا تَزَالُ تَخْتَلِجُ وَكَانَ أَنْفُهُ مَائِلًا إِلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ فَهُوَ خَبِيثٌ، ٱلصُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْخُصُومَةِ، مَنْ حَارَبَ ٱلْمَلِكَ ٱلْحَازِمَ الْأَرِيبَ ٱلْمُتَصَرِّعَ ٱلَّذِي لَا تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ وَلَا تُدْهِشُهُ الضَّرَّاءُ كَانَ هُوَ دَاعِيَ ٱلْحَتْفِ إِلَى نَفْسِهِ، مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا،

١٨

أَسْمَاءُ ٱلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ الْمُشْتَقَّةُ مِنَ الْفِعْلِ السَّالِمِ الْمَزِيدِ فِيهِ(١)

أَلَا هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ، ٱلدِّيكُ هُوَ ٱلْمُنْتَشِرُ ٱلْجَنَاحَيْنِ ٱلْمُنْتَصِبُ ٱلذَّنَبِ، إِذَا فِي قَعْرِ ٱلْبِئْرِ تِنِّينٌ فَاتِحٌ فَاهُ(٢) مُنْتَظِرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذَهُ، إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ٱلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، ٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ، أَمَرَ بِاحْتِصَارِ ٱلْمُنَجِّمِينَ، زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَبًا أَتَى أَجَمَةً فِيهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى شَجَرَةٍ، إِنَّمَا مُصَاحِبُ ٱلْعَدُوِّ وَمُصَالِحُهُ كَصَاحِبِ ٱلْحَيَّةِ يَحْمِلُهَا فِي كُمِّهِ، ٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ مُتَثَبِّتًا لَمْ

Digitized by Google

يَزَلْ نَادِمًا، أُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، انْطَلَقَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا فِي السَّمَاءِ، هٰذَا الْإِنْسَانُ الْمَحْدُودِبُ الظَّهْرِ مِنْ طُولِ السُّجُودِ وَالرُّكُوعِ، الرَّجُلُ الْفَاضِلُ الرَّشِيدُ لَا يُرَى إِلَّا فِي مَكَانَيْنِ إِمَّا مَعَ مَلِكٍ مُكْرَمًا أَوْ مَعَ نَاسِكٍ مُتَعَبِّدًا، آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا، اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ، هٰذَا الْمَكَانُ حَدِيقَةٌ مُخْضَرَّةٌ ثَوْبُهَا، لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ وَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ، لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ (٣) مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا، اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ، أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ،

١٩

أَسْمَاءُ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ الْمُشْتَقَّةُ مِنَ الْفِعْلِ الْغَيْرِ سالِمِ والاسمُ الْمَنْسُوبُ (١)

سُبْحَانَ خَالِقِ الْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّاتِ، تَكَلَّمْ مَهْمَا شِئْتَ فَإِنِّي مُصْغٍ إِلَيْكَ، كُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ، الْعَقْلُ غَرِيزَةٌ مَكْنُونَةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَامِنَةٌ كَالنَّارِ فِي الْحَجَرِ، لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ، لَسْتُ

Digitized by Google

يَتَّخِذَكَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ خَلِيلاً وَلَا مُفْشٍ إِلَيْكَ سِرًّا، سَتَرَى (٢) ٱلْأَسَدَ حِينَ تَدْخُلُ عَلَيْهِ مُقْعِيًا عَلَى ذَنَبِهِ رَافِعًا صَدْرَهُ إِلَيْكَ مَادًّا بَصَرَهُ نَحْوَكَ، ٱللَّهُمَّ نُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ، لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ، لَمَّا أَجَابَهُ بِذٰلِكَ خَرَجَ مُكْتَئِبًا حَزِينًا مُسْتَحْيِيًا، يَنْبَغِي لِلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ ٱلْمُحْسِنِ وَٱلْمُسِيءِ لِيُجَازِيَ ٱلْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَٱلْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا، أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ (٣) كُنْتُمْ فِي بُرُجٍ مُشَيَّدٍ، كَفَى بِٱللَّهِ وَلِيًّا، يَبْقَى حَيْرَانًا مُتَرَدِّدًا، خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، إِنَّ ٱلْمُسْتَجِيرَ لِلْخَائِفِ أَهْلٌ أَنْ يُؤْمَنَ، قَدْ وَجَدْتُ ٱلْعِلْمَ وَٱلْحَيَاءَ آلِفَيْنِ مُتَأَلِّفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدِ ٱلْآخَرُ كَٱلْمُتَصَافِيَيْنِ، يُدْفَعُ ٱلْمَخُوفُ لِٱسْتِجْلَابِ ٱلْمَحْبُوبِ، يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مُتَّهِمًا، أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ، إِنْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا، كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ، إِنَّ ٱلصَّدِيقَ صَدِيقَانِ طَامِعٌ وَمُضْطَرٌّ، هُمْ يَكْتُبُونَ ٱلْأَوَامِرَ (٤) عَلَى سَعَفِ ٱلنَّخْلِ بِحَدِيدَةٍ مُعْوَجَّةٍ، مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ٱلنَّاسِكَ ٱلْمُهْرِيقَ (٥) عَلَى رَأْسِهِ ٱلسَّمْنَ وَٱلْعَسَلَ، لَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ مُسْتَمِرًّا فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ يَعْثُرْ، ٱلْمَسْكَنُ لِي وَتَحْتَ يَدِي وَأَنْتَ مُدَّعٍ لَهُ، ٱلْإِخْوَانُ هُمُ ٱلْمُؤَاسُونَ عِنْدَ مَا يَنُوبُ مِنَ ٱلْمَكْرُوهِ، قَالَ ٱلْمَلِكُ لِلْإِنْسِيِّ مَا ٱلْحُجَّةُ عَلَى مَا زَعَمْتَ

Digitized by Google

وَادَّعَيْتَ قَالَ لَنَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ (٢) عَلَى مَا قُلْنَا وَحُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ عَلَى مَا ادَّعَيْنَا، جَعَلَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ مَسْكَنَ الْعَلَوِيِّينَ، الْقُمْرِيُّ الْمَكِّيُّ الصَّعْوَةُ الْجَبَلِيُّ الزُّرْزُورُ الْفَارِسِيُّ السُّمَانِيُّ الْبَرِّيُّ اللَّقْلَقُ الْقَلْبِيُّ الْعَقْعَقُ الْبُسْتَانِيُّ الْأُزُّ الْبَطَائِحِيُّ الْهَزَارُ اللُّغَوِيُّ النَّعَامَةُ الْبَدَوِيُّ الْغَوَّاصُ الْبَحْرِيُّ،

٢٠

الْجَمْعُ الْمُكَسَّرُ

بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ وبِالْكُفْرِ تَحِلُّ النِّقَمُ، شَخَصْتُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْغُوطَةِ وَأَنَا ذُو جُرْدٍ مَرْبُوطَةٍ، بَنَوْا فِي سُهُولِ الْأَرْضِ الْحُصُونَ وَالْمُدُنَ وَالْقُرَى وَسَكَنُوهَا، لَنَا أَنْ نَتَحَكَّمَ عَلَى الْبَهِيمَةِ تَحَكُّمَ الْأَرْبَابِ وَنَتَصَرَّفَ فِيهَا تَصَرُّفَ الْمُلَّاكِ كَيْفَ نَشَاءُ، إِنَّ الصَّالِحِينَ يُعْرَفُونَ بِسِيمَاهُمْ وَصُوَرِهِمْ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ (٢)، ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً (٣)، لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ، إِنَّ لِي قِصَصًا سَأَقُصُّهَا عَلَيْكَ، النَّاسُ يَصْنَعُونَ السُّفُنَ، سَخَّرُوا مِنَ الْجِمَالِ وَالْبِغَالِ

وَقَيَّدُوهَا، كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ بُقُولِ ٱلْأَرْضِ وَحُبُوبِ ٱلنَّبَاتِ، أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، مَنْ ذَا طَلَبَ من اللِّئَامِ فَلَمْ يُجْرَمْ،

٢١

خَلَقَ ٱللَّهُ آدَمَ وَأَوْلَادَهُ عُرَاةً حُفَاةً، إِنَّهُ إِذَا ٱجْتَمَعَ ٱلْمَكْرَةُ ٱلظَّلَمَةُ عَلَى ٱلْبَرِيِّ ٱلصَّحِيحِ كَانُوا خُلَقَاءَ أَنْ يُهْلِكُوهُ، ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ (٤)، كُنَّا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا سُكَّانَ ٱلْأَرْضِ، يَسْأَلُونَكَ مِنَ ٱلْأَعِلَّةِ، وَدُّوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ، يُمْرُونَ بِأَوَامِرِ ٱللَّهِ وَيَنْهَوْنَ بِنَوَاهِيهِ، مَنْ لَمْ يَرْكَبِ ٱلْأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ ٱلرَّغَائِبَ، أَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى ٱلدَّوَابِّ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، هٰذِهِ ٱلطِّبَاعُ ٱلَّتِي ذَكَرْتَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِقَادَةِ ٱلْجُيُوشِ وَوُلَاةِ ٱلْحُرُوبِ، ٱلْفِيلُ إِذَا وَحِلَ لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا ٱلْفِيلَةُ، مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ، لَقَدْ نَصَرَكُمُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ (٥)، ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ (٦)، نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ، ٱسْتَأْجَرَ أَكَرَةً،

Digitized by Google

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ (٧) مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَعْلِيمِ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ (٨)، قَالَتِ ٱلشَّمْسُ أَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي ٱلسَّحَابُ ٱلَّذِي يَكْسِفُ أَشِعَّةَ أَنْوَارِي، نَتَرَاوَحُ عَلَى ٱلنَّارِ ضَرْبًا بِٱجْنِحَتِنَا حَتَّى تَضْطَرِمَ فِي ٱلْحَطَبِ،

لِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِنْ قَبْلُ، كَانُوا يَصِيفُونَ فِي ٱلْبُلْدَانِ ٱلْبَارِدَةِ، يُؤْوِي ٱلْغُرَبَاءَ، أَخَذُوا مِنَّا أَسْرَى، لَوْ كَانَتْ لَهُمْ مُرُوَّةٌ لَمَا كَانَ يَهْنَاهُمُ ٱلْعَيْشُ اِذَا رَأَوْا فُقَرَاءَهُمْ وَجِيرَانَهُمْ وَٱلْيَتَامَى مِنْ أَوْلَادِ إِخْوَانِهِمْ وَٱلضُّعَفَاءَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ جِيَاعًا عُرَاةً مَرْضَى زَمْنَى مَطْرُوحِينَ عَلَى ٱلطُّرُقَاتِ (٩)، ٱشْتَرَى أَمَاءً وَعَبِيدًا، رَأْسُ ٱلْبَلَايَا كُلِّهَا ٱلْمَوْتُ، ذُكْرَانُنَا لَا يَرْغَبُونَ فِي مَحَاسِنِ إِنَاثِنَا وَلَا إِنَاثُنَا فِي مَحَاسِنِ ذُكْرَانِنَا كَمَا لَا يَرْغَبُ ٱلسُّودَانُ فِي مَحَاسِنِ ٱلْبِيضَانِ وَلَا ٱلْبِيضَانُ فِي مَحَاسِنِ ٱلسُّودَانِ، لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلٰوةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى، نَغْفِرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى (١٠) تُفَادُوهُمْ، ٱللَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَى، رُبَّ مَغْبِرٍ ضَعِيفٍ قَدْ بَلَغَ بِحِيلَتِهِ وَدَهَائِهِ وَرَأْيِهِ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَقْوِيَاءِ، أَضْرِمَتْ حَوْلَ ٱلشَّجَرَةِ

Digitized by Google

ٱلنِّيرَانُ، يَا وَحْشَتَا (١١) مِنْ فُرْقَةِ ٱلْإِخْوَانِ وَيَا ٱشْتِيَاقَا لِلِقَاءِ ٱلْخِلَّانِ، يَنْزِلُونَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْجِبَالِ ٱلشَّامِخَةِ ٱلنُّسُورَ وَٱلْعُقْبَانَ وَيَعْمِلُونَ ٱلْحَجَلَ مِنَ ٱلْخَشَبِ فَيَشُدُّونَهَا فِي صُدُورِ ٱلنِّيرَانِ وَأَكْتَافِهَا، كَانَ ٱلرَّشِيدُ مِنْ أَفْضَلِ ٱلْخُلَفَاءِ وَفُصَحَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَكُرَمَائِهِمْ، قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا قُتِلُوا، إِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلٰوةِ قَامُوا كُسَالَا لَا يُرَاءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللّٰهَ إِلَّا قَلِيلًا،

٢٣

ٱللّٰهُ أَنْتَجَ مِنْ أَرَاءِ ذَوِي ٱلْمَعَارِفِ نَفَائِسَ ٱلْحِكَمِ ٱلنَّافِعَةِ وَحَقَائِقَ ٱلْأَشْيَاءِ، ٱتَّخِذُوا عِبَادَ ٱللّٰهِ خَوَلًا، دَعَانَا إِلَى جَزِيرَتِكُمْ مَا سَمِعْنَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلْمَلِكِ وَمَنَاقِبِهِ وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ، لَنَا مَسَائِلُ أُخَرُ وَمَنَاقِبُ غَيْرُ مَا ذَكَرْتَ، إِنَّ أَقْوَالَ ٱلْعُلَمَاءِ لَهَا وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ وَمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ، إِنَّ ٱلْعَاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ (١٢) أَصْدِقَاءَ وَٱلْإِخْوَةَ (٣١) رُفَقَاءَ وَٱلْأَزْوَاجَ أُلَّافًا وَٱلْبَنِينَ ذِكْرًا وَٱلْبَنَاتِ خُصَمَاءَ وَٱلْأَقَارِبَ غُرَمَاءَ، ٱلْجَمَلُ مَعَ طُولِ قَوَائِمِهِ وَرَقَبَتِهِ وَٱرْتِفَاعِ رَأْسِهِ مِنَ ٱلْأَرْضِ فِي ٱلْهَوَاءِ يُبْصِرُ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ ٱلْوَعْرَةِ وَٱلْمَسَالِكِ ٱلصَّعْبَةِ فِي ظُلَمِ ٱللَّيْلِ مَا لَا يُبْصِرُ ٱلْإِنْسَانُ، يَجْتَمِعُ عَلَى ٱلْكَلْبَةِ ٱلْوَاحِدَةِ عِدَّةُ فُحُولَةٍ لِتُحْبِلَهَا، ضَيَّقُوا عَلَيْنَا ٱلْأَمَاكِنَ وَٱلْأَوْطَانَ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ،

Digitized by Google

لِهٰذَا حَوَادِثُ وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ، فِي ٱلْجَنَّةِ ثَمَرٌ، أَدْرَكَهُ مِنَ ٱلْكِلَابِ ٱلطَّلَبُ،

٢٤

لَوْ رَأَيْتَنَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ وَنَحْنُ أُسَارَى فِي أَيْدِي بَنِي آدَمَ مُقَرَّنِينَ فِي قَدَادِينِهِمْ مُشَدَّدِينَ فِي دَوَالِيبِهِمْ لَرَحِمْتَنَا، ٱلْفَأْرُ وَٱلْجِرْذَانُ يَدْخُلُونَ مَنَازِلَ ٱلنَّاسِ وَبُيُوتَهُمْ وَدَكَاكِينَهُمْ وَأَنْبَارَاتِهِمْ (١٣) غَيْرَ مُسْتَأْمَنَةٍ بَلْ عَلَى وَحْشَةٍ، أَخْلَاقُ ٱلْفَلَاسِفَةِ كَأَخْلَاقِ ٱلْمَلَائِكَةِ، كُنْتُ أَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلصَّحَارَى فَلَمْ تَزَلِ ٱلْأَسَاوِرَةُ تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى رَأَيْتُ ٱلْيَوْمَ شَيْخًا، مِنْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱلْقَرَاعِنَةُ وَٱلنَّمَارِدَةُ وَٱلْجَبَابِرَةُ، جَمَعَ تَلَامِذَتَهُ، آنِيَ ٱلْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ، خَلَقَ ٱللّٰهُ ٱلشَّمْسَ لِصَلَاحِ ٱلْعَالَمِ وَٱلنَّفْعِ ٱلْعَامِّ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَعْرِضُ فِي بَعْضِ ٱلْأَحَايِينِ (١٥) ٱلْمَنَاحِسُ مِنْ إِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْمُنَجِّمِينَ إِلَّا ٱلْمَنْحُوسُونَ ٱلْمَخَاذِيلُ ٱلْأَشْقِيَاءُ، ٱلْإِنْسَانُ جَاهِلٌ بِمَعْرِفَةِ طُوَلِ مَضَارِبِهِ (١٦)، أَعْلَمُهُمْ أَنَّهُ خَبِيرٌ بِمَعْرِفَةِ أَخْلَاطِ ٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلْعَقَاقِيرِ، أَرْوَحُ ٱلْأُمُورِ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ ٱلتَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ، إِنَّ عُيُونَهُ وَجَوَاسِيسَهُ مَبْثُوثَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ، كَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ وَيَتَذَاكَرُونَ ٱلْأَحَادِيثَ وَٱلْأَخْبَارَ،

Digitized by Google

أ

مِنْ كِتاب ٱلْمُخْتار مِنْ نَوادِرِ ٱلْأَخْبَارِ

تاليف الشَّيْخ الصالح الورع المحدّث شَمْس الدين ابى عبد الله محمد بن احمد المُقْرى الأَنْبارى

قَالَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِى ذُوَيْبٍ ٱلسَّعْدِيَّةُ وَهِىَ مُرْضِعَةُ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ عَلَيْنَا قَائِفٌ تَعْنِى رَجُلا مُتَفَرِّسًا لا تُخْطِئُ فِراسَتُهُ وَهُمْ قَوْمٌ بِأَعْيَانِهِمْ مِنْ بَنِى مُدْلِجٍ يَتَوارَثُونَ ٱلْقِيافَةَ وَكانَتِ العَرَبُ تَقْصِى بِأَحْكامِهِمْ قالَتْ حَلِيمَةُ فَٱنْطَلَقَ ٱلنَّاسُ بِأَوْلادِهِمْ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْقائِفِ يَقْفُو لَهُمْ قَالَتْ حَلِيمَةُ وَٱنْطَلَقَ ٱلْحارِثُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعُزَّى تَعْنِى زَوْجَهَا بِرَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عليه وسلَّمَ وَهُوَ فِى سِنِّ ٱلرَّضَاعِ فَأَخَذَهُ مِنْ عَبْدِ ٱلْعُزَّى وَقَبَّلَهُ وَقالَ مَا يَنْبَغِى لِهٰذا ٱلصَّبِىِّ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِى سَعْدٍ قال صَدَقْتَ وَهُوَ مُسْتَرْضَعٌ فِينَا وَهُوَ ٱبْنِى من الرَّضاعَةِ فَقالَ القَائِفُ ٱرْدُدْهُ عَلَى أَهْلِهِ فَإِنَّ له شَانًا عَظِيمًا وَسَتَفْتَرِقُ فِيهِ ٱلْعَرَبُ ثُمَّ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ وقال جَعْفَرُ بْنُ أَبِى طَالِبٍ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ يَلْعَبُ فَرَأَهُ فَوْجٌ مِنْ بَنِى مُدْلِجٍ وَهُمْ ٱلْقافَةُ فَدَعَوْهُ وَنَظَرُوا الى قَدَمَيْهِ وَقَفَدَهُ عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ فَخَرَجَ فِى خَلْسِهِ

حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بين أَيْدِيهِمْ وهم يَتَأَمَّلُونَهُ فقالوا ما هذا الغُلامُ قال أَبَنِي قالوا احْتَفِظْ به فما رَأَيْنَا قَدَمًا أَشْبَهَ بِالْقَدَمِ الذى فى المَقامِ مِنْ قَدَمَيْهِ يَعْنُونَ إِبْراهِيمَ عليه وعلى نَبِيِّنا أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ فى الْحِجْرِ الْمُسَمَّى بِمَقامِ ابْراهِيمَ

٢

وكانَ عَبْدُ اللهِ المامون يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى الْكِسَائِيِّ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ صَغِيرٌ وكَانَ مِنْ عَادَةِ الكسائى إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِ الْمَأْمُونُ يُطْرِقُ رَأْسَهُ فَإِذَا غَلَطَ المامونُ رَفَعَ الكسائى رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَيْهِ فَيَرْجِعُ عَبْدُ اللهِ إِلَى الصَّوَابِ فَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ يَوْمًا سُورَةَ الصَّفِّ فَلَمَّا قَرَأَ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ فَرَفَعَ الكسائى رَأْسَهُ ونظر عبدُ اللهِ اليه فكَرَّرَ الآيَةَ فَوَجَدَهَا صَحِيحَةً فَمَضَى على قِرَاءَتِهِ وَانْصَرَفَ الكسائى ودخَلَ عبدُ اللهِ المأمونُ على الرَّشِيدِ فقال يا امِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ كُنْتَ وَعَدْتَ الكِسائِيَّ وَعْدًا فَأْتِهِ مِنْكَ قال إِنَّهُ كان الْتَمَسَ لِلْقُرَّاءِ شَيْئًا وَوَعَدْتُهُ بِهِ فهل قال لك شَيْئًا قال لا قال فما أَطْلَعَكَ عَلَى هٰذا فَأَخْبَرَهُ بِالْأَمْرِ فَسَرَّهُ ذلك من فِطْنَةِ المامون وَيَقْظَتِهِ

٣

وَحَدَّثَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَايِنِيُّ قَالَ خَرَجَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَمَعَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حُجَّاجًا فَسَبَقَتْهُمُ الْقَافِلَةُ وَفَاتَهُمْ أَثْقَالُهُمْ فَجَاعُوا وَعَطِشُوا فَمَرُّوا بِعَجُوزٍ فِي خِبَاءٍ لَهَا فَقَالُوا لَهَا هَلْ مِنْ شَرَابٍ قَالَتْ نَعَمْ فَأَنَاخُوا بِهَا وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا شُوَيْهَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَامَتْ وَحَلَبَتِ الشَّاةَ وَأَتَتْهُمْ بِلَبَنِهَا فَشَرِبُوا ثُمَّ قَالُوا هَلْ مِنْ طَعَامٍ تَأْتِينَا بِهِ فَقَالَتْ أَذِنْتُ لَكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا هٰذِهِ الشَّاةَ فَمَا عِنْدِي سِوَاهَا فَقَامَ إِلَيْهَا أَحَدُهُمْ فَذَبَحَهَا وَقَطَّعَهَا فَهَيَّأَتِ الْعَجُوزُ لَهُمْ مِنْهَا طَعَامًا فَأَكَلُوا وَأَقَامُوا حَتَّى أَبْرَدُوا فَلَمَّا ارْتَحَلُوا قَالُوا لَهَا نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ نُرِيدُ هٰذَا الْوَجْهَ فَإِذَا رَجَعْنَا لَمْ بِنَا فَإِنَّا صَانِعُوا لَكِ خَيْرًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ثُمَّ ارْتَحَلُوا وَجَاءَ زَوْجُ الْمَرْأَةِ فَأَخْبَرَتْهُ خَبَرَ الْقَوْمِ وَمَا قَالُوا لَهَا فَغَضِبَ وَقَالَ وَيْحَكِ أَتَذْبَحِينَ شَاةً مَا لَنَا سِوَاهَا لِقَوْمٍ لَمْ نَعْرِفْهُمْ ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ أَلْجَأَتْهُمُ الْحَاجَةُ إِلَى دُخُولِ الْمَدِينَةِ فَدَخَلَاهَا وَجَعَلَا يَبْتَاعَانِ الْبَعَرَ وَيَعِيشَانِ بِثَمَنِهِ فَرَّتِ الْعَجُوزُ فِي بَعْضِ طُرُقٍ وَإِذَا لِلْحَسَنِ عَلَى بَابِ دَارِهِ فَعَرَفَهَا وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْهُ فَبَعَثَ لَهَا غُلَامَهُ فَدَعَاهَا إِلَيْهِ فَقَالَ لَهَا يَا أَمَةَ اللهِ هَلْ تَعْرِفِينِي قَالَتْ لَا قَالَ أَنَا أَحَدُ ضُيُوفِكِ يَوْمَ صَنَعْتِ لَنَا الشَّاةَ قَالَتْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَأَمَرَ أَنْ يُشْتَرَى لَهَا مِنْ غَنَمِ الصَّدَقَةِ أَلْفُ رَاسٍ وَأَمَرَ لَهَا

Digitized by Google

بِٱلْفِ دِينَارٍ وَبَعَثَ بِهَا مَعَ غُلَامِهِ الَى أَخِيهِ لِلْحُسَيْنِ فَدَفَعَ لَهَا أَلْفَ شَاةٍ وَأَلْفَ دِينَارٍ وَبَعَثَ بِهَا الى عبد الله بن جعفر فقال بِكَمْ وَصَلَكِ لِلْحَسَنُ وَلِلْحُسَيْنِ قالت بِالْفَيْ شَاةٍ وَأَلْفَيْ دِينَارٍ فرجعت العَجُوزُ لِزَوْجِهَا بِالْمَالِ وَالْأَغْنَامِ

٤

قَدِمَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ جَعْفَرٍ على يَزِيد بن مُعَاوِيَةَ فقال يَزِيد مَا كَانَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُعْطِيكَ يَعْنِى أَبَاهُ مُعَاوِيَةَ قال كَانَ رَحِمَهُ اللهُ يُعْطِينِى مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ اِذَا قَدِمْتُ عليه قال لَكَ مِائَةُ الف وَلِقَوْلِكَ رحمه الله مِائَةُ الفِ قال بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى قال وَلِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ مِائَةُ الْفِ قال يَكْفِى يَا مَوْلَاىَ قال وَلِهٰذِهِ الكلمة مِائَةُ الف قال أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ قال وَلِهٰذِهِ الكلمة مِائَةُ الف قال فَحَمَلَ عَبْدُ اللهِ المالَ وَٱنْصَرَفَ فقيل لِيَزِيد انْفَدْتَ المالَ وَأَجْحَفْتَ بِٱلْخِزَانَةِ دَفَعْتَ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ خَمْسَمِائَةِ أَلْفِ دينار فقال ما دَفَعْتُهَا له وَحْدَهُ وَإِنَّمَا دَفَعْتُهَا لِسَايِرِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ ما يَمْلِكُ دِرْهَمًا الا جَادَ بِهِ فَلَمَّا رَجَعَ عبدُ اللهِ الى المدينة لَمْ يَنْزِلْ عن رَاحِلَتِهِ حَتَّى فَرَّقَهَا لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا فَعُوتِبَ فِى ذٰلِكَ فقال إِنَّ اللهَ عَوَّدَنِى عادةً وَعَوَّدْتُ خَلْقَهُ عادةً فَعَوَّدَنِى أَنْ يُعَدِّنِى بِالرِّزْقِ وَعَوَّدْتُ خَلْقَهُ بِالْبِرِّ فَأَكْرَهُ أَنْ أَقْطَعَ العادةَ فَيَقْطَعُ

فَنِى ٱلْمَادَّةُ وقيل ضاق به الوَقْتُ فى آخِرِ عُمْرِهِ فَدَعَا يَوْمَ جُمُعَةٍ وقال ٱللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ صَرَفْتَ نِعَمِى ما كنتَ تُجْرِيه على يَدِى من الإِحْسَانِ الى خلْقِكَ فَٱقْبِضْنِى إِلَيْكَ فَمَا عاش الى جُمُعَةٍ أُخْرَى

٥

وحَدَّثَ ٱلْهَيْثَمُ بْنُ عَدِىٍّ قال تَرَاهَنَ ثَلَاثُ نَفَرٍ فِى ٱلْأَجْوَادِ فقال أَحَدُهُمْ أَجْوَدُ ٱلنَّاسِ فِى عَصْرِنَا هٰذا قَيْسُ بْنُ عَلْقَمَةَ وقال آخَرُ أَجْوَدُ الناس فى عصرنا هذا عُرْوَةُ ٱلرَّحِلِ وقال آخَرُ اجود النـاس فى عصرنا هذا عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ فتَشَاجَرُوا فى ذلك وأَكْثَرُوا فقال لهم النَّاسُ يَمْضِى كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ الى صاحِبِه يَسْأَلُهُ حَتَّى نَنْظُرَ ما يُعْطِيه ونَحْكُمَ عَلَى ٱلْعِيَانِ فقامَ صاحِبُ عبـد الله بن جعفر فصادَفَهُ وقد تَجَهَّزَ لِبَعْضِ أَسْفارِهِ على راحِلَتِهِ فقال لَهُ يا ٱبْنَ عَمِّ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللهُ عليه وسلَّم انـا ٱبْنُ سَبِيلٍ مُنْقَطِعٌ يُرِيدُ رِفْدَكَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ وكان قد وَضَعَ رِجْلَهُ على ظَهْرِ ٱلرَّاحِلَةِ فَأَخْرَجَ رِجْلَهُ وقال خُذْهَا بِمَا عليها فَأَخَذَهَـا فَإِذَا عليها مَطَـارِفُ خَزٍّ وَأَلْفَـا دِينَارٍ وَمَضَى صاحِبُ قَيْسٍ فصادَفَهُ نَائِمًا فَقَرَعَ ٱلْبَـابَ فَخَرَجَتْ اليه جارِيَةٌ فَقَالَتْ ما حاجَتُكَ فَإِنَّهُ نَائِمٌ قال ٱبْنُ سَبِيلٍ مُنْقَطِعٌ اتَيْتُ إِلَيْهِ يُعِينُنِى على طَرِيقِى فَقَالَتْ لِلْجَارِيَةِ أَعْوِنْ عَلَىَّ مِنْ إِيقَـاظِهِ

عَلَيْنَا ثُمَّ أَخْرَجَتْ له صُرَّةً فيها ثَلْثُمائَةِ دينارٍ وقالت له ٱمْضِ الى مَعاطِنِ الابِلِ فَٱخْتَرْ لك منها راحِلةً فَٱرْكَبْها وَٱمْضِ راشِدًا فَمَضَى الرَّجُلُ وَأَخَذَ ٱلْمالَ والرَّاحِلَةَ فَلَمَّا ٱسْتَيْقَظَ قَيْسٌ مِنْ نَوْمِه اخْبَرَتْهُ الجارِيَةُ بِٱلْخَبَرِ فَٱعْتَقَها سُرُورًا وَمَضَى صاحِبُ عُرابَةَ فَوَجَدَهُ قَدْ عَمِيَ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِه يُرِيدُ ٱلْمَسْجِدَ وَهُوَ يَمْشِي بَيْنَ عَبْدَيْنِ فقال له يا عُرابَةُ ٱبْنُ سَبِيلٍ وَمُنْقَطِعٌ بِه يُرِيدُ رِفْدَكَ فقال واسَوْأتاهُ وَٱللّٰهِ ما تَرَكَتِ ٱلْحُقُوقُ فى بَيْتِ عُرابَةَ ٱلدِّرْهَمَ الْفَرْدَ وَلٰكِنْ يا أَخِى خُذْ هٰذَيْنِ ٱلْعَبْدَيْنِ فقال الرَّجُلُ ما كُنْتُ بِٱلَّذِى أَقُصُّ جَناحَكَ فَقالَ وَٱللّٰهِ لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ وَانْ لَمْ تَأْخُذْهُمَا فَهُما حُرَّانِ فَنَزَعَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْعَبْدَيْنِ وَرَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ وَهٰذَا لِلْجِدارِ يَلْطِمُهُ وهذا لِلْجِدارِ يَصْدِمُهُ حَتَّى أَثَّرَ فى وَجْهِهِ فَلَمَّا ٱجْتَمَعُوا حَكَمُوا لِصاحِبِ عُرابَةَ بِكَثْرَةِ ٱلْجُودِ

٦

خَرَجَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى بَعْضِ أَسْفارِهِ فَنَزَلَ على نَخِيلٍ لِقَوْمٍ وَفِيهِمْ عَبْدٌ أَسْوَدُ يَحْرُسُها فَأُتِىَ بِغُوتِهِ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَقْراصٍ فَبَيْنَما هُمْ جُلُوسٌ إِذْ دَخَلَ كَلْبٌ الى تِلْكَ النَّخِيلِ وَهُوَ يَلْهَثُ فَدَنَا مِنَ ٱلْغُلَامِ وتَخَوَّفَ إِلَى تِلْكَ الْأَقْراصِ فَرَمَى له العَبْدُ قُرْصًا فَأَكَلَهُ ثُمَّ رَمَى لَهُ الثَّانى فاكله ثم رمى له الثالثَ فاكله فَأَكَلَ الكَلْبُ

الجميع وعبد الله ينظر اليه فقال عبد الله للعبد كم فوتك يا ولدى كل يوم فى هذا المكان قال ثلاثة أقراص وقم هولاء قال فلم آثرت هذا العذاب بهم قال يا سيدى ليست هذه بأرض كلاب ولم أشك أنه جاء من مسافة بعيدة وهو جائع ولم يحضرنى سواهم قال فما انت صانع قال أطوى الى غد قال عبد الله بخ بخ والله إن هذا الأسخى منى فما برح عبد الله الى أن اشترى النخيل والعبد وأعتقه ووهب له النخيل وارتحل عنه

٧

وذكر أبو العباس الشيبانى قال لما مرض ابو دلف بالعلة التى مات بها أقام شهرا ملازما الوسادة فأفاق يوما فقال لخادمه بشر كم لى على هذه الحال قال شهرا فلما سمع ذلك من بشر بكى كثيرا وقال أيسر على من عمرى هذه المدة لا أبر فيها أحدا من الناس يا بشر اخرج الى الباب فان قلبى يشهد أن بالباب قوما لهم الينا حوائج فلا تمنع أحدا من الدخول الينا فخرج بشر فاذا عشرة من أولاد أبى طالب فأمرهم بالدخول فدخلوا فابتدر رجل منهم وقال أصلحك الله نحن قوم من بنى طالب من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه

وسلّم وفينا من وَلَدِهِ وقد أحاطت بنا المصايب وأخفقت بنا النوايب فإن رأيت أن تجبر كسرنا وتغنى فقرنا فعجّل لخادمه خذ بيدى وقم فأجلسني على ذاك الفراش ففعل ثم قال لياخذ كل واحد منكم ورقة ليكتب فيها بخطه أنه قبض مني ماية الف درهم فتحيروا عند قوله فلما كتبوا الرقاع وضعوها بين يديه فقال لخادمه ايتني بالمال فأحضره فأعطى كل واحد منهم ماية الف درهم فلما تسلموا المال قال له رجل منهم بالآباء نفديك وبالأمهات نقيك والله ما لنا مال ولا عقار وخطوطنا عندك ما تصنع بها فبكى وقال لهم أتظنون أنها وثايق عليكم لا والله لا والله ثم قال لخادمه يا بشر إذا أنا مت فاجعل الرقاع فى أكفاني ألقى بها محمدا صلى الله عليه وسلم فى عرصات القيامة ثم قال له أوصل لكل منهم ألف دينار لنفقة طريقه انصرفوا بارك الله فيكم وقد قيل فيه انما الدنيا ابو دلف بين باديه ومحتضره فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

٨

خرج يزيد بن المهلب على بنى أمية وتغلب على البصرة أخذه عمر بن عبد العزيز وحبسه فهرب من سجنه ليلا وكان معه

ٱبْنُهُ مُخَلَّدٌ فَنَزَلَا بِعَجُوزٍ مِنَ ٱلْعَرَبِ فَـذَبَحَتْ لَهُمَا عَنْزًا فَلَمَّا ٱصْبَحَ
قَالَ لِٱبْنِهِ كَمْ مَعَكَ مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ ثَمَانُ مِائَةِ دِينَـارٍ قَالَ ٱدْفَعْهَا
لِلْعَجُوزِ قَالَ يَا أَبَتِ إِنَّكَ لَفِي شِدَّةٍ وَإِنَّكَ لَمُحْتَـاجٌ لِلْمَالِ وَهٰذِهِ
الْعَجُوزُ يُرْضِيهَا مِنْكَ ٱلْيَسِيرُ وَهِيَ لَا تَعْرِفُكَ فَقَـالَ أَبُوهُ يَا بُنَيَّ إِنْ
كَانَ يُرْضِيهَا الْيَسِيرُ فَإِنِّي لَا أَرْضَى بِٱلْعَطَاءِ ٱلْيَسِيرِ فَإِنْ كَـانَتْ لَا
تَعْرِفُنِي فَأَنَا أَعْرِفُ بِنَفْسِي ٱدْفَعِ الْمَالَ كُلَّهُ لَهَا فَفَعَلَ وَمَضَيَا

٩

سَعَى رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ فِي فَسَادِ دَوْلَةِ الْمَنْصُورِ فَعَلِمَ بِهِ
وَجَعَلَ لِمَنْ دَلَّ عَلَيْهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَأَقَامَ ٱلرَّجُلُ حِينًا مُخْتَفِيًـا
حَتَّى مَصَّهُ ٱلْاِخْتِفَـاءُ ثُمَّ ظَهَرَ فِي مَـدِينَةِ ٱلسَّـلَامِ فَبَيْنَـا هُوَ يَمْشِي
فِي بَعْضِ ٱلشَّوَارِعِ إِذْ رَآهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ فَعَرَفَهُ فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ
ثِيَابِهِ وَنَادَى هٰذَا طَلِبَةُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَبَيْنَا ٱلرَّجُلُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْحَالَةِ
وَقَدِ ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ إِذْ سَمِعَ وَقْعَ حَوَافِرِ ٱلْخَيْلِ مِنْ وَرَائِهِ فَٱلْتَفَتَ
فَإِذَا هُوَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ فَقَالَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَنَا فِي جِيرَتِكَ فَوَقَفَ وَقَالَ
لِلَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ مَا شَأْنُهُ قَالَ هٰذَا بُغْيَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي قَدْ
نَذَرَ دَمَهُ وَجَعَلَ لِمَنْ دَلَّ عَلَيْهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَصَرَخَ مَعْنٌ وَقَالَ دَعْهُ
ثُمَّ قَالَ مَعْنٌ أَرْدِفْهُ يَا غُلَامُ خَلْفِي فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ وَسَاقَ فَصَاحَ ٱلرَّجُلُ

Digitized by Google

ٱلْحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَ طَلِبَةِ أَمِيرِ المومنين ولَمْ يَزَلْ عَايِطًا إِلَى أَنْ أَتَى إِلَى بَابِ أَمِيرِ المومنين فنادى بِأَعْلَى صَوْتِهِ نَصِيحَةٌ لِأَمِيرِ المُومنين فَأَمَرَ ٱلْمَنْصُورُ بِحُضُورِهِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَخْبَرَهُ ٱلْخَبَرَ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ مَعْنٍ فَأَتَاهُ ٱلرَّسُلُ فَدَعَا مَعْنٌ بِبَنِيهِ وَعَبِيدِهِ وقال لا تُسَلِّمُوا هٰذا الرَّجُلَ وَمِنْكُمْ أَحَدٌ يَعِيشُ ثُمَّ سَارَ الى ٱلْمَنْصُورِ فدَخَلَ وَسَلَّمَ فلم يَرُدَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامَ وقال يا مَعْن أَجِيرٌ عَلَيْنَا عَدُوُّنَا قال نَعَمْ قَالَ وَتَعْتَذِرُ بِنَعَمْ أَيْضًا وَٱشْتَدَّ غَضَبُهُ فقال مَعْن يا أَمِيرَ المومنين بِالْأَمْسِ بعثتنى الى ٱلْيَمَنِ مُقَدِّمَ ٱلْجَيْشِ فَقَتَلْتُ فى طَاعَتِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَشَرَةَ آلَافِ نَفْسٍ وَلِى مِثْلُهُ أَيَّامٌ كَثِيرَةٌ مَا رَأَيْتُمُونِى أَهْلًا أَنْ تُجِيرُوا لِى رَجُلًا وَاحِدًا ٱسْتَجَارَ بِى وَدَخَلَ مَنْزِلِى فَسَكَنَ غَضَبُ ٱلْمَنْصُورِ وقال قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يا ابا الوليد قال مَعْنٌ فَإِنْ رَأَى امير المومنين أَنْ يَصِلَهُ بِصِلَةٍ يَعْلَمُ بِهَا مَوْقِعَ الرِّضَى عَنْهُ فَإِنَّ قَلْبَ ٱلرَّجُلِ قَدِ ٱنْخَلَعَ مِنْ صَدْرِهِ خَوْفًا قال قَدْ أَمَرْنَا لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ قال يا امير المومنين إِنَّ صِلَةَ ٱلْخُلَفَاءِ على قَدْرِ جَنَايَاتِ الرَّعِيَّةِ وَإِنَّ ذَنْبَ ٱلرَّجُلِ عَظِيمٌ فَأَجْزِلْ لَهُ العَطِيَّةَ قال قد أَمَرْنَا له بِمِايَةِ أَلْفٍ قال عَجِّلْهَا يا امير المؤمنين فَإِنَّ خَيْرَ البِرِّ أَعْجَلُهُ فَأَمَرَ له بِتَعْجِيلِهَا فَأَحْضَرَ مَعْنٌ الرَّجُلَ وقال خُذْ صِلَةَ أَمِيرِ المومنين وقَبِّلْ يَدَهُ وإِيَّاكَ ومُخَالَفَةَ ٱلْخُلَفَاءِ فِي أَرْضِ الله قال فَأَخَذَ الرَّجُلُ ٱلْمَالَ وَٱسْتَغْفَرَ ٱللَّهَ تَعَالَى وَذَهَبَ

Digitized by Google

١٠

قال أبو الفرج السلمي قال حدثني عمرو بن العلاء قال جلس النعمان بن المنذر وعليه حلة مرصعة بالدر لم ير مثلها قبل ذلك اليوم وأذن للعرب في الدخول عليه وكان فيهم أوس بن حارثة قال فجعلت العرب تنظر الى الحلة وكل منهم يقول لصاحبه ما رأيت مثل هذه الحلة قط ولا سمعت أن أحدا من الملوك قدر على مثلها قال وأوس بن حارثة مطرق لا ينظر اليها قال له النعمان ما أرى كل من دخل علي الا استحسن هذه الحلة وتحدث مع صاحبه في أمرها الا أنت مع نقصان قدرها عندي ما رايتك استحسنتها ولا نظرتها قال أوس أسعد الله الملك انما يستحسنون الحلة اذا كانت في يد الشاجر وأما اذا كانت على الملك وأشرق فيها وجهه فنظري مقصور عليه لا عليها فاسترجح عقله واستحسن قوله فلما عزموا على الانصراف قال لهم النعمان اجتمعوا الي في غد فاني ملبس هذه الحلة لسيد العرب منكم فانصرف العرب عنه وكل يزعم أنه لابس الحلة في غد فلما أصبحوا تزينوا بأفخر الملابس وتقلدوا بأحسن السيوف وركبوا أجود الخيل وحضروا الى النعمان وتأخر عنه أوس ابن حارثة فقال له أصحابه ما لك لا تغدو مع الناس الى مجلس الملك فلعلك تكون صاحب الحلة فقال أوس ان كنت سيد قومي فما أنا

Digitized by Google

بِسَيِّدِ ٱلْعَرَبِ عِنْدَ نَفْسِي وَإِنْ حَضَرَتْ وَلَمْ آخُذْهَا ٱنْصَرَفْتُ مَنْقُوصًا وَإِنْ كُنْتُ ٱلْمَطْلُوبَ لَهَا فَسَيَعْرِفُ مَكَانِي فَأَمْسَكُوا عَنْهُ وَنَظَرَ ٱلنُّعْمَانُ فِي وُجُوهِ ٱلْقَوْمِ فَلَمْ يَرَ أَوْسَ بْنَ حَارِثَةَ فَٱسْتَدْعَى بَعْضَ خَاصِيَتِهِ وَقَالَ اذْهَبْ لِتَعْرِفَ خَبَرَ اوس فَمَضَى رسولُ النعمان واستَخْبَرَ بعض أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُ بِمَقَالَتِهِ فعاد الى النعمان فاخبره بمقالته فبعث النعمانُ اليه رسولا وقال احضرْ آمِنًا ممّا خفتَ عليه فحضَرَ اوس بِثِيَابِهِ ٱلَّتِي حَضَرَ بِهَا بِالْأَمْسِ وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ قد استبشرت بتأخُّرِهِ خَوْفًا من ان يكونَ يأخُذ الحُلَّةَ فلما حضر واخذ مَجلسَه قال له النعمان إِنِّي لَمْ أَرَكَ غَيَّرْتَ ثِيَابَكَ فِي يَوْمِكَ فَالْبَسْ هٰذِهِ الْحُلَّةَ لِتَتَجَمَّلَ بِهَا ثم خَلَعَهَا وَأَلْبَسَهَا لَهُ فَاشْتَدَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَرَبِ وَحَسَدُوهُ وَقَالُوا لَا حِيلَةَ لَنَا فِيهَا إِلَّا أَنْ نُرَغِّبَ ٱلشُّعَرَاءَ إِلَى أَنْ يَهْجُوهُ بِقَبِيحِ ٱلْفِعْلِ فَإِنَّهُ لَا يَخْفِضُ رِفْعَتَهُ إِلَّا ٱلشِّعْرُ فَجَمَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ خَمْسَمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ جَرْوَلٌ وَقَالُوا لَهُ خُذْ هٰذِهِ وَٱهْجُ لَنَا اوسَ بن حارثةَ وكان جرولٌ يومَئِذٍ اشعرَ العربِ وأَقْوَاهُم هِجَاءً فقال لهم يا قومُ كيف أَهْجُو رجلا حَسِيبًا لَا يُنْكَرُ بَيْتُهُ كريما لا يُنْقَطَعُ عَطَاؤُهُ فَضِيلًا لَا يُطْعَنُ عَلَى رَأْيِهِ شُجَاعًا لَا يُضَامُ نَزِيلُهُ مُحْسِنًا لَا أَرَى فِي بَيْتِي شَيْئًا إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ فَسَمِعَ بِذٰلِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ بِشْرُ بن حازمٍ شَاعِرًا فَرَغِبَ فِي ٱلْبَذْلِ فَأَخَذَ ٱلْخَمْسَ مِائَةِ نَاقَةٍ وَهَجَاهُ وَذَكَرَ أُمَّهُ سُعْدَى

Digitized by Google

فسمع اوس بذلك فوجّه فى طَلَبِه فهَرب وترَك الابلَ فانوّا بها الى اوس ابنِ حارثة فاخذها وشَدّ فى طَلَبِه وجعَل بِشْر بن حازم يَطُوف فى أَحْيآء العرب يَلْتمس عزيزا يُجيره على اوس وكُلّ من قصَده يقول قد أَجَرْتُكَ الاّ من اوس بن حارثة فانّى لا أَقْدِر ان أُجيرَ عليه وكان اوس قد أَدْنَى عليه العُيونَ فراد بعض من كان يَرْصده فقبَض عليه وأَتَى به الى اوس فلمّا مثَل بَيْنَ يدَيْه قال لـه وَيْلَك أَتَذْكُر أُمّـى وليس فى عَصْرنا مِثْلهـا قال قد كان ذلك أَيُّها الاميرُ قال لـه واللهِ لأَقْتُلَنّكَ قِتْلةً تُحْبَى بها سُعْدَى يَعْنى أُمّه ثمّ دخَل اوس الى امّـه سعـدى وقال قد اتَيْتُكِ بالشاعر الذى هَجاكِ وقد آليتُ لاقتـلنّه قِتْلة تُحْبَيْنَ بها قـالت يا بُنَىَّ أَوَخَيْرٌ من ذلك قـال وما هو قالـت أَنّه لم يَجِدْ ناصِرًا منك ولا مُجيرًا عليك وأَنَا قَوْمٌ لا نَرَى فى اصْطِنـاع المعروف من باس فحَقِّى عليك أَلاّ اطلقْتَه وردَدتَّ عليه ابلَه وأَعْطَيْتَه من مالِك مِثْلَ ذلك ومن مالى مثلَه وأَرجِعْه الى اهـلِه سالِمـا فانهم أَيِسُوا منه فخَرَج له اوس وقال ما تقول أَنِّى فاعلٌ بك قـال تَقْتلـنى لا محالةَ قال أَفتَسْتَحِقّ ذلك قال نعَمْ قـال ان سُعدَى لَلّه هَجوتَهـا قد اشارتْ بكذا وكذا وامَر بحَلّ كِتافه وقال له انْصرِفْ الى اهلك سالمًا وخُذْ ما امَرتْ لك به فرفَع بشر يدَه الى السمآء وقال اللهمّ

انت الشاهدُ علىّ لا أَعُودُ الى شِعْرٍ إلّا ان يكونَ مَدْحًا فى اوس ابن حارثة وله بعدَ ذلك فيه قَصايدُ كثيرةٌ

١١

وذكر العباس بن الفَرَج باسناد ذكره قال كان فى خِلافة سُلَيْمانِ بنَ عَبْد المَلِك رجلٌ يقال له خُزَيْمة بن بِشْر الأَسَدىّ وكان له مُرُوّةٌ ظاهرةٌ وبِرٌّ كثيرٌ بالإِخْوانِ وكَرَمٌ مشهورٌ فلم يَزَلْ على تلك الحالةِ حتّى قَعَد به دهرُه ونَاحَ عليه بكُلْكَلِه ولَحّ عليه الفَقْرُ فواسَوْه إخْوانُه قليلًا ثم مَلّوه فلمّا لاح له تَغَيُّرُهم اخْتارَ لزُومَ بيته وأَغْلق بابه وانْقَطع عن الناسِ وكان عِكْرِمَةُ الفَيّاضُ واليًا على الرَّقّةِ من قِبَل سليمان بنِ عبد الملك فبينما هو فى مَجْلِسه وعِنْدَه جماعةٌ من أَصْحابه اذ جَرَى ذِكْرُ خزيمةَ بن بشر فأَعْلَموه انه لَزِم بيتَه واغلق بابَه فقال عكرمة أَوَمَا كان لخزيمةَ من يكافيُه على مُرُوّته وسَدِّ خُلّتَه وأَمْسَك عكرمة عن الحديث فلما خلا المَجْلِس ومضَى من الليل جانِبٌ قام عكرمة الى كيسٍ وجعَل فيه اربعةَ آلافِ دينار ثم امر بدابّتِه فُأُسْرِجَتْ وخَرج سِرًّا من أَهْله فركب ومعه غلامٌ من غِلْمانه يَحْمِل المالَ ثم سار حتّى اتى دار خزيمةَ فاخَذ اللّبِيسَ ونَزل عن الدابّةِ من قَبْلِ انْ يصل الى بابِ خزيمة وبعَث الغلام الى مكانٍ

آخَرَ بالدابَّة وتَقدَّم حتّى وصَل الى باب خزيمة فقرَع البـابَ فخرَج خزيمة وفتَح البابَ فناوَله عكرمةُ الكيسَ وهمّ بالانْصرافِ فمسَك خزيمة بطَرَفه وقال له مَن انتَ قال له ما جِـيئتُك هذا الوقـتَ وأُريد ان يَعْرِفنى احدٌ فقال خزيمة لا بُدّ من مَعْرِفتك قال انا جابرُ عَثَرات الكِرام وتَرَكه ومضَى فاخَذ خزيمة الكيس ودخَل به الى بيته وهـو يظنُّه فُلوسا فلمّا رَجَع عكرمةُ الى مَنْزله وجَد زوجَتَه على أَشَرِّ حالٍ لانهـا ظَنّت انّه خرَج الى زوجةٍ غيرِها او جـاريةٍ اشْتَراها فقال لهـا اقرّى عينًا فواللهِ ما خرجتُ لشيءٍ من ذلك وانمـا أَرَدْتُ ان افعل شيـا لا يَعْلَمه الا اللهُ تعالى فلم تَزَلْ به الى ان أَعْلمها بصُورة الأَمْرِ قال ثم ان خُزَيْمَةَ بن بشر أَصْلَح شـانَه واشترى ثيابًا فاخرةً ومَرْكوبـا حَسَنًا وتَجهَّز الى سلَيمـان بن عبد الملك وكـان يومَئذٍ بفَلَسطينَ وكان عارفًا فلما دخل عليه قال له ما أَبْطَاك عَنّا يا خزيمة قال سُوءُ الحال يا اميرَ المُومنين قال فما منَعك من النُهوض الينا قال قِلّةُ ذات يدى قال فما أَراك إلاّ فى أَحْسَنِ حالٍ وَأَجْمل هيئةٍ قـال إنّ صُورةَ امْرِى لعجيبٌ يا اميرَ المومنين ثم قَصّ عليه قِصّتَه من اوّلِهـا الـى آخِرِها فاهتزّ سليمان طَرَبًا وجعل يقول جابرَ عثَرات الكـرام ويكرّرها ويقول والله لو عرَفْتُه لَأَعَنْتُهُ علـى مُرُوّتِـه فللهِ دَرُّه ما أَحْسَنَ فِعْلَـه واوفَرَ عَقْلَه ثم دعا سليـمـان بقنـاة فعقَد الولايةَ لخزيمة على الرَّقّة

والجزيرة وهو العَمَلُ الذى بيَدِ عكرمة وامَرَه ان يَقْبِضَ على مالِه ويَحْتاطَ عليه وبحاسِبَه فخَرَج خزيمةُ يُريد الرقةَ فلمَّا قَرُب اليها خرَج عكرمة يَتلقَّاه بوجوه الناسِ فتَلقَّاه ودخَل خزيمة الرقّةَ فدخَل فى دارِ الامارة وأَراد عكرمة الانْصراف فمَنَعه خزيمةُ ووكَّل به مَن يَحْفَظه وامَر باحْضار مالِه والمالِ الذى تحتَ يدِه وعَمَلِ الحساب فحُوسِبَ فبَقِىَ عليه شئٌ كثيرٌ فبعَث به الى السِّجْن وأَنْ يُثْقَل بالحَديدِ فاقام ثلاثةَ ايام وهو لم يَذكرْ له ما فعَله معه فَضّ زوجتَه ذلك فبعَث اليه وهى ابنةُ عمِّه الى خزيمة وهى تقول بِئْسَ ما جازيتَ به جابِرَ عَثَراتِ الكِرامِ يا خزيمةُ فلما سَمِع هذا خزيمةُ دَهِش عقلُه وطار لُبُّه وقال وَاسَوْأَتاهُ وَاخَجْلَتاه وافْتَضَحْتَاه من اللّهِ تعالى ومِنْ جابِرِ عَثَراتِ الكِرامِ ومن أَميرِ المومنين وقام من وَقْتِه وأَتَى الى السِّجْن يَمْشى وهَجَم على عكرمةَ ورَمَى بنفسه اليه وجعَل يقبِّل يدَيْه ويَعْتذر له ويُقْسم بالله انه ما عَرَفه وأَخْرَجه ودخَل به وآخَذه الحَمّامَ وأَحْضر له ما يَحْتاج اليه من قُماش وطِيبٍ واستبشَر اهلُ المدينة بذلك غايةً وخَرج من يومه راكِبَيْن الى سليمان بن عبد الملك فلما استاذَن عليه الحَجّابُ جَزِعَ سليمان من ذلك وقال عامِلُ الرقة والجزيرة يَقْدَم علينا من غير إذْنٍ فلما دخل قال ما أَقْدَمك علينا يا خزيمة قال يا امير المومنين ظَفِرْتُ بجابِرِ عَثَراتِ الكِرام قال أَوَعَرَفْتَه

قال نعَمْ قال مَنْ هو قال عكرمةُ الفَيّاضُ قال لا حَوْلَ ولا قوّةَ الا باللهِ العَلِيّ العظيمِ بِئْسَ ما جازَيْناه به عن مُرُوّته ثم أَذِنَ له فدخَل فقال له سليمان بِئْس ما جازيناكَ عن كَريمِ فِعْلِك وعظيمِ مروتك يا عكرمةُ وبِئْسَ ما فعَل خزيمة قال عكرمةُ معذورٌ يا اميرَ المومنين اذ لم يَعْلَمْ نَصيحةُ اميرِ (المومنين) أَحَبُّ اليه فقال سليمان إنَّ اصْطناعَ المَعْروفِ لا يَكادُ يَخْفَى ولا يَضيع وامَر لعكرمةَ بمالٍ جزيلٍ وسامحه مِمَّا كان وَجَب عليه الخروجُ منه وعقَد لهما الولايةَ على الرقة والجزيرة واضاف اليهما من الأَعْمالِ اقْليما كبيرًا

١٢

وحَدَّثَ ابو موسى الفَضْلُ عن أَبيه قال سمعتُ زَيْنَبَ بنتَ سُلَيْمانَ بن علي بن عبد الله بن العبّاس قالت كنتُ عند الخَيْزُران جاريةِ المَهْدِي وعادتُها اذا كنت عندَها تَجْلِس في عَتَبةِ باب الرِواق مُقابلَ الايوان واجْلِس انا بازائِها في الصدر في مَجْلس كان المهدي يجلس فيه وهو يَقْصُدنا في كلِّ وقتٍ يجلس عندنا في بعض الاوقات ساعة ثم يَنْهض فبينا نحن كذلك إذ دخلتْ علينا جارية من جَوَارِي الخَيْزُران اللاتي يَحْجُبْنَها فقالت أَعزَّ اللهُ السَيِّدةَ إنَّ بالبابِ امْرأةً ذاتَ جَمالٍ وخِلْقةٍ حسَنةٍ وهي على غايةٍ

من سوء الحال تستأذن عليكما فسالتها عن اسمها فامتنعت من ذلك قالت زينبُ فاشارت الخيزرانُ إليّ وقالت ما تريْنَ فقلتُ ما يضرّ من دخولها شيءٌ فلا بُدَّ من فائدةٍ او ثواب فدخلتْ امراةٌ اجْمَلُ ما يكون من النساء واكملُهنّ فوقفت الى جانب الباب وسلّمت وقالت انا مُرَيّة بنت مروان الملك بن محمّد الأمويّ فقالت زينبُ وكنتُ مُتّكئةً فقمْتُ جالسةً وقلت مُريّةُ قاتلكِ اللهُ ولا جبّاكِ ولا رعاكِ ولا سَلّمَ عليكِ والحمدُ لله الذى ازال النّعْمَةَ عنكِ وقتلكِ متركِ واهانكِ بين الناسِ أتذكرين يا عَدُوّةَ الله حين أتاكِ نِساءُ بنى العبّاس يسالنكِ ان تكلّمى أباكِ فى الاذن فى دَفْن ابراهيم بن محمد ابن موسى فوثبتِ عليهنّ وأسْمَعْتِيهنّ اخْشَنَ الكلامِ واغلظ القولِ وخَرَجْن على الحالة التى علمْتيها قالت زينبُ فلمّا سمعت كلامى ضحكتْ فواللهِ ما أنْسى حُسْنَ ثغْرِها وعلوَّ صَوْتِها بالقَهْقَهَةِ ثم قالت اى (بنت) بنى عمّى اىُّ شَىْءٍ أعْجَبُكِ مِنْ حُسْنِ صَنيع الله بى حتّى اردت ان يتَساوَى بى واللهِ لقد فَعَلَتْ بنساء أهْلِكِ ما قد ذكرت ولَئِنْ كان حَقًّا على الله تعالى انْ يسلمنى ذليلةً جايعةً عريانة شعثة خاضعة فكانَ هذا شُكْرَكِ الله على ما اوْلاكِ فىَّ ثم قالت سَلامٌ عليكُمْ وولّتْ خارِجةً قالت زينب فالتفتُّ الى الخيزران فاذا هى تَبْكى ونادَتِ الخيزران يا مريةُ دخلتِ باذْنى ولا تَخْرُجى الا باذْنى

وصاحت بحجابها ردّوها فرجعت وقالت والله ما ساقنى اليك الاّ الضرّ والجهد وسوء الحال فنهضت الخيزران فعانقتها فقالت ما فى لذلك موضع للحال الذى انا عليه فقالت الخيزران لجواريها عليكم بالحمّام سُرعةً فذهبوا بها للوقت الى الحمّام وامرت بعض جواريها بخدمتها ولم يبرحوا حتّى وافتها بالخلع المذهّبة والطيب فقامت اليها الخيزران واعتنقتها واجلستها المجلس الذى يجلس فيه امير المومنين المهدى وقدّمت اليها المآئد فجعلت تاكل وتلقمها الى ان اكتفت فغسلت يديها فقالت لها الخيزران هل عندك احدٌ ينتظرك قالت ما لى احدٌ فقالت الخيزران قومى اختارى لكِ مقصورةً من مقاصيرى فاسكنى عندى ولا نفترق حتّى يفرّق بيننا الموت فقامت وطافت واختارت أوسعها وأنزهها فحوّل اليها جميع ما تحتاج اليه من الفرش والكساوى والحرير والرقيق ثم تركناها وخرجنا من عندها فقالت الخيزران هذه امراةٌ قد مسّها من الضرّ ما لا مزيدٌ عليه ولا يغسل ما فى قلبها الا المالُ احملوا اليها خمسمائة الف درهم فحملت اليها لوقتها ودخل المهدى اليها فى آخر الامر فقال ما بالكم فنهضت اليه زينبُ فاعلمته بجميع ما جرى وما قالت لها حين دخلت عليها فغضب غضبا شديدًا وقال ما هذا سجودك لله تعالى على ما أنعم عليكِ والله لو لا لكِ علىّ حرمةٌ لأحملقنّ انسى ما أكلمك ابدًا

Digitized by Google

قالت يا اميرَ المومنين قد طاب قلبُها واعتذرتْ اليها وفعلتْ معها الخيزران كذا وكذا فسَرَّه ذلك وقال أَحْمِلوا اليها من عندى مايةَ الف درهم وقال لخادم كان على راسه بَلِّغْها منّى السلامَ وقُلْ لها انّنى ما سررتُ بشىء مُنْذُ دَهْرى كسُرورى اليومَ بمقامك عندنا فلا تَدَعى فى نفسكِ حاجةً الّا ذَكَرْتيها لنا وَلَوْ لا اكرَهُ أَنْ أَخْشِمَكِ لسِرْتُ اليكِ مسلّمًا عليكِ وقاضيًا بحقّك فمضى الخادمُ بالرّسالة فجاتْ الى المهدى وسلّمت عليه وقالت ما علىَّ من اميرِ المؤمنين من حِشْمة فانى عُدتُ (عددت) من بعض جَوَارِيهِ فقال لا والله بَلْ أَعَزّ من ولَدى ولم تَزَلْ عند الخيزران حتّى ماتت

١٣

ولمّا حجّ المَنْصور اميرُ المومنين أُعْرِضَ عليه جوهرٌ نفيسٌ له قيمةٌ للبَيْع فعرَفه وقال هذا كان لهِشَام بن عبد الملك بن مروانَ فانْتَقَل الى ابْنه محمّد بن هِشام وما بَقِىَ من بنى أُمَيَّةَ غَيْرُه ولا بُدَّ لى منه ثمّ التفت الى حاجِبِه الربيع وقال اذا كان غَدا وصَلّيْتَ بالنّاس فى المَسْجد الحَرام وحصَل الناسُ كلّهم أَغْلِقِ الأَبْوابَ كُلَّها ووكِّلْ بها جماعةً من الثقاتِ وافْتَحْ بابا واحدًا وقِفْ عليه ولا تُخْرِجْ احَدا حتّى تَعْرِفَه فاذا ظَفِرتَ بمحمّد بن هشام فَأْتِنى به فلمّا كان

من غدٍ فعَل الربيعُ ما امَره به المنصورُ وكان محمَّد بن هشام فى المَسْجد فعرَف انّه المطلوبُ وأيقَنَ انه ماخوذٌ مَقْتول فتَحَيَّر وارْتاب واضْطَرَب فبَيْنا هو على تلك الحالةِ إذْ أقْبَلَ محمَّدُ بن زَيْد بن علىّ ابن الحُسَيْن بن علىّ بن ابى طالب رضى الله عنه فراه متحيِّرًا وكان لا يَعْرِفه فتَقدَّمَ اليه وقال يا هٰذا ما بالُك فقال لا شىء فقال أَخبِرْنى ولك الامانُ إنْ شا الله على نَفْسك قال محمد بن هشام بن عبد الملك فمن انْتَ قال انا محمد بن زيد بن على بن الحسين فزاد خَوْفُه وطار عَقْلُه وتحقّق الموتَ فقال له لا تَجْزَعْ فلستَ قاتلَ ابى وجَدّى وليس لى عليك ثارٌ وانا اجتهِدُ فى خَلاصك إنْ شاء اللهُ تعالىٰ ولٰكنْ تَعْذِرُنى فيما انا صانعٌ بك من مُكْروهٍ وقَبيح خِطابٍ ويكونُ سببَ خَلاصك فقال له افعَلْ ما شِئْتَ فطَرَح رِداءه على وَجْهه وغَطّى به راسَه وجذَبه وسحَبَه الى أنْ قَرُب من الرَّبيع حاجِب المَنْصور وهُوَ على البابِ فلمّا وقَعت عَيْنُ الربيع عَلَيْهما لَطَمه محمّد بن زيد لطماتٍ فى راسه وجاء به الى الرَّبيع وقال يا ابا الفَضْل إنَّ هٰذا الخبيثَ جَمّال من أَهْل الكُوفة أَكْرَانى جملا له فلمّا دفَعتُ له الكِرَى قَرَبَ منّى وذهَب فأَكْرَى جمالَه لبَعْض اهل خُراسانَ ولى عليه شُهودٌ وأُريد منك من يُوصِلُه مَعى للقاضى ويُمْسك جمالَهُ عن الذَّهاب مع الخراسانيّيْنَ فرَسَّم الربيعُ عليه اثْنَيْن وقال لا تُفارِقاه الى القاضى

ومحمّد قابضٌ على الرِداء وقد اسْتَتَرَ وَجْهَهُ به فخرجوا جميعًا من المَسْجد فلمّا بَعُدوا عن الرّبيع قال له محمّد اذْهَبْ الى حالِ سَبيلك فقبّل محمد بن هشام يدَه وراسَه وقال الله اعلَمُ حَيْثُ يَجْعَل رِسالاته ثمّ أَخْرَجَ له جواهرَ قيمتُها عظيمةٌ وقال لله تعالى يا ابنَ بِنْتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم شَرِّفْني بِقَبُولِ هذا فقال له اذهَبْ بِمتاعِك فنحنُ اهلُ بيتٍ لا نَقْبَل على أَصْطِناع المَعْروف مكافاةً واحترِزْ على نَفْسِك من هذا الرجل الى ان يَخْرُج فانه مجدّ فى طَلَبِك

١٤

قيل للأَخْيَف بن قَيْس مِمَّنْ تعلّمتَ الحِلْمَ قال من قيس ابن عاصم رايتُه يوما قاعدا بفِناء دارِه مُحْتَبِيًا بحمايل سَيْفه بحادث قومَه فاذا هو بِرَجُل مكتوف ورجلٍ مقتول قد أُتى بهما فقيل له هذا ابنُ أَخيك قد قَتَل ابنَك قال فوالله ما قَنَع كَلامَهُ ثم التفتَ الى ابنِ أَخيه وقال له يا ابنَ اخى أَثِمْتَ بربّك ورَضَّيْتَ نفسَك بسَهْمِك وقتلتَ ابنَ عَمّك ثم قال لِوَلَده الاخَر أَخِى المقتول قُمْ يا بُنَيَّ فَادْفِنْ أَخاك وحِلّ كِتافَ ابن عمك وسُقِ الى أُمّك مايةَ ناقةٍ حُمْرًا دِيَةَ وَلدِها فانها غريبةٌ ورُوِىَ انه جلس يوما فى

دارِه على المايدة ومعه وَلَدٌ صغيرٌ فجات الجارية اليه بسقوٍ عليه شواءٌ حارٌّ فسقط من يدها على ابنه فلم يُخْطِ قَلْبَه فمات لوقته فدهشت الجاريةُ وانقطع لونُها فقال لها لا باسَ عليكِ انت حُرَّةٌ لوجه الله تعالى

١٥

ولمّا حجَّ مُعاويةُ بن ابى سُفيانَ لم يَتْرُكْ شيا الاّ قَدِمَ به الى مَكَّةَ والمدينةِ من دَراهِمَ ودَنانيرَ وطِيبٍ ودَواءٍ فلمّا وَصَلَ المدينةَ قسَّم على أَهْلِها من ذٰلك وأَكْثَرَ ثمّ بعَث الى رَجُلٍ من الأَنْصار بالفَيْ دِرْهَم وعَشَرة أَثْواب والرَّجُل الأَنْصارِىّ من اهل بَدْر فاتاه الرسول بذلك العَطاء فغضب وقال أَمَا وَجَدَ مُعاويةُ من يُرْسِل اليه بمثْل هذا العطاء غيرى أَرْدُدْه عليه فقال الرسول لا اقدرُ فدَعَا الانصارىُّ ابنًا له وقال يا بنىّ أَسْأَلُك بحَقّى عليك الا رَدَدتَّ هذا العَطاء على مُعاويةَ وضربتَ به وَجْهَه فاخَذها ولد الأَنْصارىّ وأَتَى الى معاويةَ فعرَف معاويةُ الشرَّ فى وَجْهِه فقال ما تُريدُ قال إنّ أَبى يُقْرِئك السَّلامَ ويقول لك أَنْتَلى تُرْسِل اليه بِمِثْل هذا العَطاء قال معاويةُ مَن الرسولُ الى ابيك قال فلانٌ قال قاتله اللهُ انما هو خَطاءٌ ودَفع لابيك عطاء رَجُلٍ غَيْرِه ثمّ قال يا غلام علىّ بعَشَرة أَلافِ دِرْهَم وثلاثينَ حُلَّةً وقُوَيا ووَصيفا فعجّل بذلك واحضر الجميعَ فقال

يا ابنَ اخى خُذْ هذا الجميعَ واعتذِرْ لابيك وعرِّفه بخَطاء الرسول فقال يا اميرَ المومنين ان للوالد حقًّا وله امرٌ مطاعٌ وقد امَرنى بشئ فقال معاويةُ وما هُوَ يا ابنَ اخى قال انه لما دفع الىّ الثيابَ قال بحَقّى عليك إلا ضربتَ بها وجهَهُ قال يا ابنَ اخى أَطِعْ اباكَ وارفُقْ بعَمّك فتقدّم الغلامُ وضرَب بها وجهَ معاوية

١٦

ونزل بعضُ الشُطّارِ الى دار خلف بن ايّوب وهو واقفٌ يصلّى بالليل فجمَع اللصُّ جميعَ ما فى بيته من قَماش وغيْره ثم شَدّه كارةً وحَملها على راسه وخلف يَنْظر اليه ولا يكلّمه فخرج الشاطر فانى الحائط فلم يَقْدر على النُّهوض فقال له خلف يا ابنَ اخى خُذ المِفْتاح وافتَح البابَ فلعلّك محتاجٌ فقال اللصُّ إنّ مِثْلك لا يُؤْذَى وتَرك القُماشَ وتابَ الى الله تعالى

١٧

فكتَب عَبْدُ الله بن الزُبَيْر الى معاوية امّا بَعْدُ يا معاوية فانّ عندك عَبيدا قد اغْتَصبوا أَرضى فَرُمْهُمْ بالكفّ عنهم والا كان لى ولكُمْ شانٌ فلما وقَف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير

دفعه الى ولده يزيد فلمّا قراه قال ما تقول يا يزيد قال أرى انْ تَبْعَث له جَيْشا اوّله عِنْدَه وآخِرُه عِنْدك ياتيك براسه وتَسْتريح منه قال عندى خَيْرٌ من ذلك يا بُنَىّ قال ما هو يا أَبَتِ قال علىّ بدَواة وقرطاس فكتب فيه وقفتُ على كِتاب حَوَارِيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءنى والله ما ساءهُ والدُنْيا وما فيها فَيِئَةٌ فى جَنْب رِضاك وقد كتبتُ على نَفْسى مُسْطورًا اشهدتُ فيه الله وجماعةً من المسلمين انّ الارضَ والعبيدَ الذى فيها مِلْكك دونى وضُمّها الى ارْضك والعبيدَ الى عَبيدك والسّلامُ فلمّا قراها عبد الله بن الزبير كَتَب اليه وقفْتُ على كِتاب امير المومنين لا أَعْدَمَنى الله بَقَاءهُ ولا اعْدَمَه هذا الرايَ الذى أَحَلّهُ هذا المَحَلّ والسّلامُ فلما وَقف معاوية على الكتاب ناوَله لِولده يَزيد فلما قراه تَهَلّلَ وجهُه فَرَحًا فقال له يا بُنَىّ اذا بُليتَ بشىء من هذا الدآء فداوِه بمثل ذلك وانّا لَقومٌ لم نَرَ فى الحِلْم إلّا خَيْرا

١٨

قيل أنّ المهلّب بن ابى صُفْرَة مرّ بحىّ من هَمْدانَ فَراه شابٌّ من اهل الحىّ فقال هذا المهلّب قالوا نَعَمْ قال والله ما يساوى خَمْسَ مِائَةِ دِرْهَم وكان المهلّب رجلا اغْوَرَ فسمعه المهلّب فلمّا كان الليل

أَخَذ المهلّب فى كُمّه خمسَ مائة درهم واتى الى الحىّ فارتقب الشابَّ الى أَنْ راءه فاتّى اليه وقال افتَحْ جُرْبَك ففتح الشابُّ جرَبه فسكَب فيه ذلك القَدْر وهو الخمس مائة درهم وقال خُذْ قيمةَ عمّك المهلب وواللهِ يا ابن اخى لو قرّضْتَنى بخمسةِ آلافِ دينار لَأَتيْتُك بها فسمعه شيخٌ من اهل الحىّ فقال واللهِ ما أَخْطا من جعلك سيّدا

١٩

وحكى سليمانُ الوَرّاقُ قال ما رايتُ أعظَمَ حِلْما من المامون ابن الرشيد وذلك أنّى دخلتُ عليه يومًا وفى يده فَصٌّ مُسْتَطيل من ياقوتٍ احْمَرَ له شعاعٌ قد اضاء له المجلسُ وهو يقلّبه بيده ويَسْتَحْسنه ثم دَعَا برجلٍ صايغٍ فقال اصنعْ هذا الفصَّ كذا وكذا وجِدَّ له فيه وعرّفه كيف يَصْنَع به فأَخَذه الصايغُ وانْصَرَف ثم عُدت الى المامونِ بعد ثلاثة ايّامٍ فذكَر الفصَّ فاستَدْعَى بالصايغ فأُتى به وهو يَرْعَد وقد انتقع لونُه فقال المامونُ ما فعَل بالفصّ فتَلَجْلَج الرَّجُل ولَمْ يُطِق الكلامَ ففَهِم المامونُ عنه شيا فولّى بوَجهه عنه وكاشر حتى سَكن رَوْعُه ثم التفت اليه واعاد القول فقال الامانَ يا امير المومنين قال لك ذلك فاخرج الفصّ على اربع قِطَع وقال يا امير المومنين انه سقط من يدى على السِنْدان فهو كما ترى فقال المامون

لا بأسَ عليكَ اصنعْ منه اربعَ خواتمَ ولطّف له الكلامَ حتّى ظننّا انه كانَ يشتهي الفصَّ على اربع قِطَع فلمّا خرج الرجلُ من عنده قال تَدْرون كم قيمة الفصّ قُلنا لا قال اشتراه اميرُ المومنين الرشيد بمايةِ الف وعشرين الف درهم

٢٠

وخرَج رَجُل على سُليمانَ بن عبد الملك فسَلّمَ منه ثمّ ظَفِر به سليمان ايضا في وقتٍ آخَرَ فعَفَى عنه ثمّ خرَج على سليمان ايضا فنَجَى منه ثمّ ظَفِر به ايضا فعَفَى عنه ثلاثَ مَرّاتٍ ثمّ امر بضَرْب عُنُقِه فقال الرجل اللهَ اللهَ يا اميرَ المومنين فقال سليمان اليس قد عفَوْتُ عنك ثمّ عفوت ثمّ عفوت فقال الرجل اليس قد اظفرك بي ثمّ اظفرك ثمّ اظفرك قال له نعَمْ والحمدُ للهِ ثمّ خَلّى سَبيلَهُ

٢١

ولما وُلّي الحَجّاج بن يوسف الخِلافةَ قال عليٌّ بالمراة الحَرُوريّة فلما وقفت بين يَدَيْهِ قال لها انتِ بالأَمْس في وَقْعَة ابن الزبير تُحَرِّضينَ الناسَ على قَتْل رِجالي ونَهْب أَمْوالي قالت قد كان ذلك

Digitized by Google

فالتفت الحجاج الى وزرايه وقال ما ترون فيها قالوا عجّل قتلها فضحكت المراة فاغتاظ لذلك الحجاج وقال ما أضحكك قالت كان وزراء فرعون خيرٌ من وزرآيك فالتفت الحجاج الى وزرآيه فراءهم قد خجلوا فقال لها كيف ذلك قالت لانه استشارهم فى قتل موسى فقالوا أرجيه واخاه يقفوا أنظره الى وقتٍ آخرَ وهولاء يسألونك تعجيلَ قتلى فضحك الحجاج وامر لها بعطاء واطلقها

٢٢

وحضر الهرمزان الفارسى بين يدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ماسوراً فدعاه عمرُ الى الاسلام فأبى فامر بقتله فقال يا امير المؤمنين قبلَ ان تقتلنى أسقنى شربةً من الماء ولا تقتلنى ظمآنا فامر عمر بقدحٍ مملوأ ماء فلما صار القدح فى يد الهرمزان قال انما آمنُ حتى أشربه يا امير المومنين قال نعمْ لك الامان حتى تشرب هذا الماء فالقى الماء من يده فاراقه ثم قال الوفا الوفا يا امير المومنين فقال عمر دعوه حتى ننظرَ فى أمره فلما رُفِعَ عنه السيفُ قال اشهدُ ان لا الهَ الا الله واشهد ان محمدا رسول الله قال له عمر لقد اسلمتَ خيرَ إسلام فما أخّرك قال خشيتُ انْ يقالَ عنّى انى اسلمتُ خوفا من السّيف فقال عمرُ رضى الله عنه ان لفارسَ لحلوماً استحقّتْ ما

كان فيه من المُلك ثم إنّ عمر بعد ذلك كان يُشاوِره في إخراج الجُيوش الى ارض فارس ويَعْمَل برايه

٢٣

وخرَج على الرّشيد رجلٌ خارجيٌّ فأُنْهِض اليه الرشيد جَيْشا فظَفِر به فاحضَره بينَ يدَيْه فقال له الرشيد ما تُريد أنْ اصنع بك قال الذى تريد ان يصنَعَ اللهُ بك اذا أوْقفك بين يدَيْه فاطرق الرشيدُ ساعةً وقال خلّوا سبيلَه فلمّا خرَج من بين يدَيْه قال له من حضَره يا اميرَ المومنين أنْفقتَ اموالَك وأتْعبتَ رجالَك واطلقتَه بكلمةٍ واحدةٍ لا نامَنْ اميرَ المومنين ان يتجرّأ عليه اهلُ الشّرّ قال رُدّوه فلمّا مَثَل بين يدَيْه عَلِمَ انّهم تحدّثوا فيه عِنْدَه فقال يا اميرَ المومنين لا تُطِعْ فى أسيرِك احدًا فإنّ الله تعالى لو اطاع فيك غيرَك ما اسْتَخْلَفك ساعةً واحدةً فقال خلّوا سبيله ولا يُعاوِدْنى احدٌ فيه

٢٤

ودخل عُمارة بن حَمْزَة على المَنْصور فأجلسه فى صدر المَجْلِس فقام رجل وقال مظلومٌ يا اميرَ المؤمنين قال مَنْ ظلَمك قال عمارة بن حمزة الذى اجلستَه فى صدر المجلس غَصَبَ لى ضَيْعة فقال المنصورُ

ثم يا عمارة قاستتر معه فى المحاكمة واقعد عند خصمك قال عمارة ما هو خصمى يا امير المؤمنين قال وكيف ذلك قال ان كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها وان كانت لى فقد وهبتها له وهى ملكه دونى ولا اقوم من مجلس شرفنى به امير المؤمنين قال فاستحسن المنصور فعله واستجود عقله

٢٥

وحدث احمد بن موسى قال ما رايت رجلا أثبت جنانا من رجل رفع فيه عند المنصور وقالوا ان عنده ودايع واموالا وسلاحا لبنى أمية فامر المنصور صاحبه الربيع باحضاره فأحضر بين يديه فقال له المنصور قد رفع الينا أن عندك ودايع واموالا وسلاحا لبنى امية فاخرج لنا منها واحمل جميع ذلك الى بيت المال فقال الرجل يا اميرَ المومنين انتَ وارثُ بنى امية قال لا فوصيٌّ انت قال لا قال فلِمَ تسأل عن ذلك فاطرق المنصورُ ساعةً ثم قال إنّ بنى امية ظلموا الناسَ وغصبوا أموالَ المسلمين وانا آخذها فاردّها الى بيت المال للمسلمين قال الرجل يحتاج اميرُ المومنين الى بيّنة يقبلها الحاكمُ انّ المال الذى لبنى أمية هو الذى فى يدى وانه هو الذى اغتصبوه من النّاس واميرُ المومنين يعلمُ انّ بنى امية

كانت معهم أموالاً لأنفسهم غيرَ اموالِ الناس التى اغتصبوها على ما يزعم اميرُ المومنين قال فسكت المنصور ساعةً ثم قال يا ربيع صدق الرجلُ ما يجب لنا عليه شيء ثم قال للرجلِ ألكَ حاجةٌ قال نعمْ قال ما هى قال ان تجْمَعَ بينى وبين مَنْ سَعَى لى اليكَ فواللهِ يا اميرَ المومنين ما لبنى امية عندى ودايعُ ولا مال ولا سلاحٌ وانما لما حضرت بين يدى امير المومنين وعلمت ما هو عليه من العدل والانصاف واتباع الحق واجتناب الباطل وانه لا يجوز ذلك ايقنتُ ان هذا الكلامَ الذى صدر منى انجح واصلحُ لما سألنى عنه واقرب الى الخلاص فقال المنصور للربيع اجمع بينه وبين الرجل الذى اتهمه فمسكه وقال هذا اخذ لى خمسماية دينار وهرب ولى عليه مسطورٌ بها فاحضرهما بين يدى امير المومنين فاستنطق الرجل فاقرّ بالمال فى ذمته فقال الرجل يا امير المومنين قد وهبتها له لاجلك وادفعُ له خمسماية اخرى لاجل حضورى فى مجلس امير المومنين فاستحسن المنصور فعله وكان كل وقت يقول يا ربيع ما رايت من حجى مثله

Digitized by Google

٣٦

ووفدت أسْمَا بنْتُ يزيد على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقالت بأبى انتَ وأُمّى يا رسولَ الله صلّى الله عليك وسلم انه لَيْس فى شَرْق البلاد وغَرْبها امرأةٌ الّا وهى مثلُ رايى إن الله بعثك الى الرجال و النّساء فآمنّا بك وبالذى أرْسَلك وإنّا مَعاشرَ النساء مَحْصورات مَقْصورات قَواعد بُيوتكم ومَواضع شهَواتكم وحاملات أوْلادكم وانتُمْ مَعاشرُ الرجال فُضّلتم علينا بالجُمعة والجَماعات وعيادة المَريض وتَشْييع الجَنايز والحَجّ بَعْدَ الحج ثم أفْضَل من ذلك الجهادُ فى سَبيل الله وانكم اذا خرجْتم حُجّاجًا ومجاهدين وتجارًا ومسافرين حفظْنا لكم اموالَكم وربّينا لكم اولادكم أفَنُشارككم فى الأجْر يا رسول الله فالتفَت النبىُّ صلّى الله عليه وسلم بوَجْهه الى أصْحابه وقال هل سمعْتم مَقالةَ امرءٍ احْسَنَ من مَسْألتها عن أمْر دينها من هذه المَرْأة فقالوا يا رسولَ الله ما ظَنَنّا انّ امْرأةً تُهْدى فى دينها الى مثل مَقالتها فقال النبى صلى الله عليه وسلم انْصرفى ايتُها المرأة وأعْلمى مَنْ خَلْفَك من النساء انّ حُسْنَ تَبعُّل احْداكنّ لزَوْجها وطَلَبها مَرْضاتَه واتّباعَها موافقَتَه يَعْدل ذلك ان شاء الله فانصرفت وهى تُهَلّل وتكبّر استبْشارًا

Digitized by Google

٢٧

وسأل رجل فقيهًا عن الخمر احلالٌ هو أَمْ حَرامٌ فقال له حَرامٌ قال الرجل ما تقول فى العِنَب والزَّبيب والتَمْر احلال هو ام حَرام فقال له حَلال قال فما تقول فى السُكَّر والقند والعسل قال حَلال قال فاىُّ شَىء حلَّل هذا وحرَّم هذا فقال الفقيه ارايتَ لَوْ أخذتَ كَفًّا من تُراب ولطمْتَ به وجهَك او صَدْرَك أكان يُؤلمك قال لا قال فلو اخذتَ كفًا من تِبْن فلطَمْتَ به وجهَك أكانَ يُولمك قال لا قال فلو اخذتَ التُرابَ والتِبْنَ والماء وجمَعْتَهم وجبَلْتَهم ووضَعتَهم فى الشَّمْس أيَّامًا ثمّ ضربتَ بهم وَجْهَك اكان يُؤلمك قال نعم قال وهكذا اذا جُمع هذا وعُتِق حَرُم واذا جُمع هذا وعُتِق حَلَّ

٢٨

لمّا تَزوَّجَ الحارث بن عَوْف الكِنْدىّ الخَنْساء بِنْتَ مُلْحِم وكانتْ ذاتَ حُسْن وكَمالٍ فايقٍ فلمّا زُفَّتْ اليه مَسكتها أُمُّها على باب الخِدْر وقالت اىْ بُنَيّة انَّ الوَصيّة لَوْ تُرِكتْ لفَضْل ادب او جُودة حَسَب لتَرَكتُها عنك لِما اعلَمْ من حُسْن أدبك وفَضْل حَسَبك وجُوْدة عَقْلك اى بنيّة لو استَغْنَتِ امْرأةٌ عن زوج لِحاجة ابيها اليها لَكنتِ أَغْنَى الناس عنه ولكنَّهنّ للرجال خُلِقْن كما

انّ الرِجـــال لهـن خُلقوا وانّك خرجتِ من العُشّ الذى كُنْت فيه درَجْتِ ومن البيت الذى فيه نَشَأْتِ الى رجل لَمْ تَعْرِفيه وقرين لم تَـأْلَفيه فكُـونى له أَمَةً يكون لك عبدًا وٱحْفَظى خِصـالًا منى لِتَبْلَغى بهـا امرًا وتُنْشرى بها ذِكرًا يا بنية عليك بحُسْن الصُحْبة بالقَناعة والعشارة بالسَمْع والطاعة ففى الطاعة راحة للقَلْب وفى السَّمْع والطاعة رِضَى الزَوْج والرَبّ والتفقُّد لمَوْضع عَتَبه وأَنْفه ولا تقعْ عينُك منه على قبيح ولا يَشَمّ منك الا طَيّبَ رِيح واعلَمى يا بنية ان الكحل هو الحُسْنُ الموجودُ والمـاء هُو أَطْيَبُ الطيب المَفْقود والرِعاية لعيـاله والحِفْظ لماله ورِعاية مالِه وعيـاله حُسْنُ التَدْبير وحَفْظ ماله حُسْن التقدير والتفقُّد لوقْتْ طَعـامه والهدوّ وقتَ مَنـامه فإنّ حَرَّ الجوع مُلْهب وتَنْغيصَ النـوم مُعْـجب ولا تُفْشيَنّ له سِرًا ولا تَعْصينّ له امرًا لانّك ان افشيتِ له سرًا لم تامَنى غَدْرَه وان عَصَيْتَ امرَه اَحْرجتِ صَدْرَه ولا تُظْهرى الفَرَح اذا كان تَرِحا ولا الاكتيابَ اذا كان فَرِحًـا ولِتُنْ زِدْتيه اعظاما زادكِ اكراما وآثِرى هَواه على هَواكِ فى وقت يجب ذلك واثرى هواكِ على هواه فى اكثر الاوقات وزُفّـت اليه وحُظيت عنده وولَـدت منـه اربـعَ مُلوك وهُمْ شَرْحبـيل وحُـاجر ومَسْلَمة ومَعْدى كَرِبَ

٢٩

قال بعضهم كان رجل اشيب اللحية يسيرًا فبينا هو يمشى اذ راى امراة تمشى ذات حسن وجمال فقال لها يا هذه ان كنت عازبة فانا اتزوج بكِ وادفع لكِ ما تختارين وان كنت متزوجة فبارك الله لزوجك فيكِ فقالت ليس لى زوج لكننى فى راسى يسير من بياض واظنك تكره ذلك فقال نعم وتركها فقالت على رسلك يا هذا والله ما بلغت من العمر عشرين سنة ولا براسى بياض وانما اعلمتك انى اكره ما تكره منى

٣٠

قيل كان معن بن زايدة رجلا حليما سخيًا كريما جوادا كثير العقل سديد الراى فشجر بين جماعة من العرب انه لا يقدر احد من خلق الله تعالى على اغضابه فقالوا له ان فعلت ذلك كان لك علينا ماية ناقة حمرا فدخل عليه فى وقت جلوسه وامتنع بان يسلم عليه ثم انشده الاعرابى هذه الابيات

اتذكرُ اذ لباسك جلدُ شاة ... واذ نعلاك من جلد البعير

فقال معنٌ اذكر ذلك ولا انساه فقال الاعرابى ثانيا

فسبحانَ الذى اعطاك ملكا ... وعلّمك الجلوسَ على السرير

Digitized by Google

فقال معنٌ ذلك من فضل الله لا من فضلك يا اخا العرب

فقال الاعرابى ثالثا

فلا والله ما ان عشتُ يوما على معن اسلّم بالامير

فقال مَعْن يا اخا العرب السلامُ سُنّة من سنن الاسلام ان اتيتَ بها اجرتَ وان تركتها اثمْتَ فقال الاعرابى

ولا اسكن بلادًا انت فيها ولو جزتْ الشام مع الثغور

فقال معن يا اجا العرب ان سكنتَ لم تَلْقَ منّا الاّ خيرا وان رحلتَ نصحوباً بالسلامة فقال الاعرابى فجُدْ لى يا ابن زائدة بشى فانى قد عزمتُ على المسير فقال معن يا غلام اعطه الف دينار يستعين بها على بُعده منا ورحيله من ارضنا فقال الاعرابى قليل ما مَنَنْتَ به وانّى لاطمَعُ منك بالشى الكثير فقال معن يا غلام أَعْطِه الفَ دينار اخرى فقال الاعرابى

فقلت اذا ملكتَ الارضَ طرًا بلا عقل ولا لبٍّ خطير

فقال معن يا غلام اعطه الفَ دينار اخرى فقال الاعرابى يا ايها الامير انى لمختبر لحلمك بما سمعتَه منى اما والله لقد جمَع الله فيك من الحلم والجود ما لو قُسّم على الارض لكفاهم قال معن يا غلام كم اعطيتَه على نظمه قال ثلاثةَ الاف دينار قال

واعطه على نثرة ثلاثة الاف دينار ايضا فاعطاه ذلك فاخذه ثم انصرف الاعرابيُّ بالمال شاكرا وهو يقول هذا البيت بأعلى صوته

فانت الجودُ والاحسانُ طرًّا وفي الاعطاء كالبحر الغزير

٣١

قال احمد بن ابى داود ما رايتُ رجلا عُرِض على الموت ورأى النطعَ مَفْروشا والسيفَ مَسْلولا ولم يَكْترِثْ لذلك ولا عُدل به عمّا أرادَ إلاّ تَميمَ بن جَميل وقد كان خَرج على المعتصم في أيّام دَوْلته ونَزع يده عن الطاعة وانقطع الى بعض النواحى وكان قد عظم امرُه على المعتصم ولقد رايتُه وقد جِيءَ به مكتوفا اسيرا وكان قد اجتمع النـاسُ من الآفاق والنواحى ينظرون كيف يقتله المعتصم وكان المعتصم قد جلس له مجلسا منكرًا وامر النـاسَ بالدخول ودخَل تميم وحضر السيّافُ وفُرِش النطعُ وكان تميمٌ جميلَ الوجه تامّ الخلقة عذب المنطق فراه المعتصم غير دَهِش ولا مكترث لما نزل به فاراد ان يستنطقه ليعلم اين عقله في ذلك الوقت فقال له تميم إن كان لك عذرٌ فات به فقال اما اذا اذن امير المومنين فالحمدُ لله الذى جَبَّر بك صدعَ الدين والمّ بك شعث المسلمين واثار بك سبيل الحق واخمد بك شهاب

الباطل انّ الذنوب يا امير المومنين لتخرس الالسنةَ الفصيحة وتقصدع الافيدة الصحيحة ووالله لقد كبر الذنبُ وعظمت الجريرة وانقطعت الحاجة وساء الظنّ ولم يبق الا عفوك او انتقامك وانت الى العفو أقربُ وهو بك اشبه واليَق ثم انشد هذه الابيات شعر

ارى الموتَ بين السيف والنطع كامنًا
يلاحظني من حيث لا اتلفّت
واكثرُ ظنّي انكه اليومَ قاتلي
وايُّ امْرِىء ممّا قضى الله يفلت
ومن ذا الذي ياتي بعُذر وحجة
وسيف المنايا بين يديه يُصلت
وما جزَعي من ان اموت وانّني
لأعْلم ان الموتَ شيء موقّتُ
ولكنّ خلفي صبيةً قد تَرَكْتُهم
واكْبادُهم من حسرة تتقتّتُ
كأنّي اراهم حين أنْعَى اليهم
وقد لطموا إتلكه الخدود وصوّتوا
فان عِشْتُ عاشوا سالمين بغبطة
أذود الرّدى عنهم وان مت مُوّتوا

قال فبكى المعتصم حتى ابتلّت لحيته وقال ان من البيان لسحرًا ثم قال والله يا تميم كاد السيف يسبق العفو وقد وهبتك لله تعالى ولصبيتك وعفوت عن زلتك ثم امر بقتله فعقد له الولاية على موضعه الذى كان خرج فيه ووصله بشى كثير

٣٢

وأُتِى للمتوكل بمحمّد بن البَعيث ووزيره ابن الدَّبَرانى وكان قد خرّج على المتوكل واستوزر ابن الدَبَرانى فلما مثل بين يَدَيْه قال له المتوكّل ما حَمَلَك على ما فعلتَ يا محمّدُ قال الشَقْوَة يا اميرَ المومنين وانّى بك لَظَنينٌ ثم قال هٰذه الأبيات شعرًا

أَبَى النَّاسُ الاَّ أَنَّكَ اليومَ قَاتِلِي
إِمَامَ الهُدَى وَالْعَفْوُ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ
تَطَاوُلُ ذَنْبِى عِنْدَ عَفْوِكَ قِلَّةٌ
فَجُدْ لى بِعَفْوٍ مِنْكَ فَالعَفْوُ أَفْضَلُ
فَانَّكَ خَيْرُ السَّابِقِينَ الَى التُّقَى
ولا شَكَّ أَنَّ الجُودَ للمَرْءِ أَكْمَلُ

فقال المتوكل خلّوه ثمّ قدّمَ ابنُ الدَبَرانى فقال اضْرِبُوا

Digitized by Google

عُنُقَه فقال سُبْحانَ اللهِ يا اميرَ المومنين تَعْفُوعن الراسِ وتَقْطَع الذَّنْبَ
قال دَعُوا الآخَرَ فخَلَّاهما جميعًا

٣٣

وقيل ان المامونَ رَضِيَ اللهُ عنه أَشْرَف يوما من قَصْرِه فرأَى
رَجُلا قايمًا وبيده فَحْمَةٌ وهو يَكْتُب بها على حايط القَصْرِ فقال
المامونُ لِأَحَدِ غِلْمانِه انزِلْ الى ذلك الرجل فَأَمْسِكْ بيَدِه واقرَأْ ما
كَتَب وَآتِنى به فنَزل الغلامُ فادرك الرجلَ فقبَض على يده وقرا
ما كَتَبه على الحايط فوجده قد كتب هٰذَيْن البَيْتَيْن شعر

يا قَصْرُ جُمِّعَ فيكَ الشُّومُ واللُّومُ
مَتَى يُعَشْعِشُ فى أَرْكانِكَ البُومُ
يوما يُعَشعِشُ فِيكَ ٱلْبُومُ مِنْ فَرَحى
اكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْعاكَ مَرْغُومُ

فقال له أَجِبْ اميرَ المومنين فقال له الرجل سالتُكَ بالله
تعالى اتَذْهَب بى اليه قال انه يَراكَ فقبَض عليه حتى مثَّله بين
يَدَيْه ثم قال انى وَجَدْتُه قد كَتَب كذا وكذا وذكر البيتين
فقال المامون وَيْلَكَ ما حَمَلَكَ على هٰذا فقال الرجلُ يا اميرَ
انه لم يَخْفَ عنك ما حَواهُ قَصْرُك هذا من خَزايِن الأَمْوالِ والحُلَى

والخَلِّ والشَّرابِ والفُرُش والجَوارى والخَدَم فَمَرَرْتُ عليه وانا فى غايةٍ من سُوءِ الحالِ من الجُوعِ والعَطَش ولى يَوْمانِ ما استطعمتُ فيها بطعامٍ فوقفتُ ساعةً وفكرْتُ فى نفسى وقلت هذا القَصْرُ عامِرٌ وانا جايعٌ فلا فايدةَ له فلَوْ كان خَرابًا ومرَرْتُ به على تِلْكَ الحالةِ لم أَعْدَمْ رُخامةً او خَشَبةً او مِسْمارًا أَبيعه وأَتقوّتُ به أَوَما عَلِم امير المومنين انه قد قيل مِنْ كَلام الفُضَلآء هٰذَيْن البيتين

إِذَا لَمْ يَكُنْ للمَرْءِ فى دَوْلَةِ ٱمْرِىءٍ
نَصِيبٌ ولا حَظٌّ دَعَا بِزَوالِهَا
وَلَا ذاكَ عَنْ بُغْضٍ ولا عَنْ مَحَبَّةٍ
وَلٰكِنَّ يَرْجِى نَفْعَهُ فى ٱنْتِقالِها

فقال المامون يا غلامُ أَعْطِه الفَ دينارٍ ثم قال يا هذا هى لكَ فى كُلِّ سَنَةٍ ما دامَ قَصْرُنا عامِرًا بنا

٣٣

قال احمد بن عمر الكوفى انّ جبلةَ بن الأَقْيَمِ كَتَب الى عُمَرَ بن الخَطّاب رَضِى الله عنه مِنَ الشِّعْرِ يَطلُب إِذْنَه فى القُدوم عليه مُسْلِمًا فسُرَّ عُمَرُ بذلك وكَتَب عمر اليه ان يَقْدَمَ ويُسْلِمَ وله ما لنا وعليه ما علينا فخَرج جبلة فى جَمْعٍ كثير من سايِرِ

العرب فلمّا قرب من المدينة ألبس القوم حللاً من الذهب ومطارقا موشّاة وحلل الخيل بجلاجل الأطلس ولبس جبلة تاجًا نفيسا ولم يبق فى المدينة احدٌ حتّى خرج النساء والصبيان وفرح المسلمون بسلامه وقدومه وكان يوما مشهودًا فدخل المدينة واسلم واقام بالمدينة وتعلّم شرايع الاسلام فلما كان أوان الموسم خرج عمر رضى الله عنه الى الحاجّ وخرج جبلة معه يريد مكّة والوقوف بعرفة فبينما جبلة بن الاهيم يطوف بالبيت اذ وطئ على إزاره رجل من فزارة فحلّه فالتفت جبلة الى الرجل فلطمه لطمة هشم بها أنفه فاستعدى الفزارىّ الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأرسل عمر الى جبلة فأحضره فحضر اليه فقال له ما دعاك الى ما صنعت بهذا الرجل الفزارىّ قال لانه وطئ على إزارى فحلّه ولو لا حرمة هذا البيت لأرمينّ براسه قال له عمر قد اقررت بفعلك فاما أن ترضيه واما القصاص قال اوتقتصّ له منّى وهو سوقة وانا جبلة بن الاهيم ملك غسّان قال له عمر رضى الله عنه قد جمعك واياه الاسلام فلا فضل لك عليه فى القصاص قال جبلة لقد رجوت ان اكون فى الاسلام اعزّ منّى فى الجاهليّة فيهات أن فعلت يا عمر فانا أتنصّر فقال له عمر ان تنصّرت ضربت عنقك قال جبلة أخّرنى الى غد يا اميرَ المومنين قال لك ذلك فلمّا كان الليل خرج

جبلة وأصحابهُ من مكّة والمدينة فلم يزالوا حتّى دخلوا قسطنطينيّة على هرقل فتنصّروا جميعًا فأقطعه من الأراضي وأوقف عليه من الرّباع ما أعرضتُ عن ذكره مخافةَ التّطويل قال وبعث عمر رضى الله عنه الى هرقل يدعوه الى الاسلام فأجابهُ الى المصالحة على غير الاسلام فلمّا أرادَ ان يكتبَ الى عمرَ جوابَه قال للرّسول اذهَبْ الى جبلة بن الايهم الذى اتانا من عندكم وتنصّر قال فذهَب اليه الرسولُ فاذا على راسه من القهارمة والحجّاب والخَدَمة ما لا يُوصَف فاستأذنَ عليه ودخَل عليه فاذا هو على سرير من بلّور قوايمُه من ذهَب فلمّا راءنى عرَفنى وأدنانى وأجلَسنى على السرير الى جانبه يَسْالنى عن المسلمين واحدًا بعد واحدٍ ورَجُلا رجلا فاقول له بخَيْرٍ تركتُهم قال وكيف تركْتَ عُمَرَ قلت بخير ثم نزلتُ عن السرير فلما نزلتُ قال لى لِمَ تابى الكَرامةَ لله اكرمتُك بها فقلتُ إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم نهى عن مثل ذلك قال نعم صلّى الله عليه وسلم ولكنْ قُمْ بنَبيّك واجلِسْ على ما شِئتَ قال الرسول فلما سمعتُه يصلّى على النبى صلى الله عليه وسلم طَمِعْتُ فى إسلامه وقلتُ له يا جبلة هل لك فى الإسْلام والرجوعِ اليه قال ابعَدَ ما كان منّى قلتُ نعَمْ قد فعَل رجل قَبْلَك مثل فِعْلِك وضرَّر وجوهَ المسلمين بالسّيْف وعاد الى

Digitized by Google

الاسلام وقبل منه وهو فلان وفلان قال جبلة لا أعود إلا ان زوجني عمر ابنته وولاني العهد قال الرسول فضمنت له التزويج ولم اضمن له الخلافة قال ثم دعا بموايد طعام فأحضرت أطباق من فضة عليها صحاف من ذهب فيها الطعام فقال لي كل فقبضت يدي وقلت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل في مثل ذلك فقال نعم صلى الله عليه وسلم ودعا بقصعة من خلنج فاكلت فيها وكان بحضرته جوار يغنين الشعر وبأيديهن العود والأراغل فقال لي أتعرف قايل هذا الشعر قلت لا قال هذا شعر ثابت بن حسان الأنصاري كيف حاله يا ترى (بني) قلت له قد كف بصره قال فأمر لي بكسوة ومال ونوق مرفوعة ثم قال لي خذ هذه فان وجدت حسانا حيا فسلمها اليه وان وجدته ميتا فادفع المال لأهله واحمر النوق على قبره سرعة وانشد هذه الابيات

قد سرت الأشراف من أجل لطمة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني
رجعت الى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة
وكنت أسيرا في ربيعة او مضر

Digitized by Google

قال الرسول فاخذت الهديّة ورجعت الى عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فاخبرته بصورة الأمر فقال قلّا ضمنت له ذلك فاذا فاء الى الاسلام وتانّس به قضى الله بحكمه فينا وفيه ثمّ ذكرت له قديّة حسّان فأنفذ عمرُ الى حسّان فأقبل وقايدٌ يقوده فلمّا دخل حسّان قال يا امير المومنين إنّى لأجدُ ريحَ غسّانَ قال نعَمْ هذا رَجُل قدِم علينا من عِنْدهم فقال ماتِ يا ابنَ اخى ما مَعَك فقال الرسولُ ومن أعْلَمك انّ معى هديّة قال يا ابن اخى إنّ جبلة كريمٌ من عَصَبة كرام مدحتهم فى الجاهلية فأعْطانى وحلَف انّه لا يَلْقى احدًا يَعْرِف بمكانى الاّ سيَّر لى معه هديّة قال فدفعتُ له المالَ والابلَ ثمّ أعادنى عمرُ الى القسطنطينية لاضْمَنَ لجبلةَ التزويجَ والأمْرَ فلمّا قدمتُ القسطنطينية وجدتُ الناسَ منصرفين من جنازته فعلِمتُ ان الشقاء قد غلَب عليه فى أمّ الكتاب

٣٥

واخبرنا سهل التَيْمىّ قال حجّ مُعاوِيَة فسال عن امْراة من بنى كِنانة كانت مُقيمة بارض الحجاز يقال لها دارمية الحجونيّة فاخبروه بسلامتها وانّها حيّة ترزق فامَر بها فلمّا حضرت وكانت

Digitized by Google

سَوْداء قال لها كَيْفَ انتِ يا بِنْت حـام قالت لستُ بِٱبْنَة حام انا ٱمْرأة من كنـانة قال اتَدْرِينَ لِمَ أُرْسلتُ الـيـك وفـيـمَ استـدعَيْتُك قالتْ لا يعلَمُ الغيب الا اللهُ تعـالى قال اردتُ ان اسالَك لِمَ احبَـبْتِ عـلـيَّ ابن ابى طـالب رضى الله عَنه وابغَضْـتِينى ووالَيْتِيه وعادَيْتِينى قالت أَوَتَعْفِينى من ذلك قال لا بدَّ أَنْ تقولـى قالت احببتُ عليًّا على عَدْلِه فى الـرعيّة وقِسْمتِه بالسَوِيّة وأَبْغضتُك على قِتـالك لِمَنْ هو أَوْلَى بالخِلافة منك وظُلْمك ما ليس لك بحَقّ ووالَيتُ عليًّا على ما عقَد له رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم من الأَلوِيَة وعلى حبّه للمساكين واِعْظامِه لاهل الدين وعادَيْتُك على سَفْكك الدماء وجَوْرك فى القَضاء وحُكْمك بالهَوَى قال لها معاوية هل رايتَ عليًّـا قالـت نعَمْ قال فكيف رايْـتِيه قـالت رايتُه ما فتَنه المُلْكُ الذى فتَنك ولم تشْغَـلْه النعْمَةُ لك شغَـلتْك قال فهل سمعت من كَلامِـه شيـاء قالت نعَمْ كـان كـلامُه يَجْلِي القلوبَ العُمْىَ كما يَجْلى الزَيْتُ الصَدَاء قال فهـل لك من حاجة قالت نعم أَعْطِنى مائةَ ناقة حُمْرا فيها فُحولُهـا ورُعاتُها قال فما تَصْنَـعين بها قالت أَغْذى بلبنها الصغار واسْتَنجى بها الكِبارَ واكتسبُ بهـا

المَكارِم وأُصْلِح بها بين العشاير قال فاذا دفَعْتُها لك اكونُ عِنْدك فى مَنْزِلة علىّ قالت لا والله فقال معاوية متمثّلا

إذا لم أَجُدْ بالحِلْمِ مِنّى عليكُمُ
فَمَنْ ذا الذى بَعْدِى يؤمّل للحِلْم
خُذِيها هَنيًا واذْكُرِى فِعْلَ ماجِدٍ
جَزاك على حَرْبِ العَداوة بالسِلْمِ

ثمر قال لها والله لو كان علىّ حيًّا ما أَعْطاك منها ناقةً فقالت لا والله ولا وَبَرَةً لأَنَّها من مالِ المُسْلِمين فقال لها خُذِيها وانصرفى

٣٥

قيل جلَس معاوية ابن ابى سُفْيانَ فى مَجْلس كان له بدِمَشْقَ وكان ذلك الموضعُ مُفتَّح الجوانب يدخُل منه النسيمُ فبينما هو جالسٌ يَنْظُر الى بعضِ الجهات وكان يوما شديدَ الحَرّ لا نسيمَ فيه وكان وَسْطَ النَّهار وقد نفح الهاجيرُ اذ نظر الى رجلٍ يَمْشى نَحْوَه وهو يتلظّى بالنارِ من حَرّ التُراب ويَتَعَجّل فى مشيه حافيا راجلا فتأمّله معاوية وقال لجُلَسَايه هَلْ خلَق اللهُ أَشْقَى ممّن يَحْتاج الى الحَرَكة فى مِثْلِ هذه الساعة فقال بعضهم لعلّه يَقْصد

امير المومنين فقال والله لئن كان قاصدى سايلاً لأعطينه او مستجيرًا لأجيرنه او مظلوما لأنصرنه يا غلام قف بالباب فان طلبنى هذا الاعرابى فلا تمنعه من الدخول على فخرج الغلام فوافق الاعرابى فقال ما تريد قال امير المومنين قال ادخل فدخل وسلم على معاوية فقال له ممن الرجل قال من تميم قال ما الذى جاء بك فى مثل هذا الوقت قال جيبك مشتكيًا وبك مستجيرًا قال ممن قال من مروان بن الحكم عاملك ثم أنشد هذه الابيات شعر

مُعَاوِيَ يا ذا الجُود والفَضْل والحِلْمِ
ويا ذَا النَدَى والعِلْم والرُشْد والنُبْلِ
اتيتُك لَمَّا ضاق فى الأَرْض مَذْهَبى
فيا غوث لا تَقْطَعْ رَجَائى مِنَ العَدْلِ
وجُدْ لى بإنْصافٍ من الجابِرِ الذى
بَلانِى بِشَىْءٍ كَانَ أَيْسَرُهُ قَتْلِى
سَبَانِى سُعْدَى وانْتَهَرَا لِخُصُومَتى
وجارَ ولم يَعْدِلْ وغاصَبَنى أَهْلِى
وهَمَّ بِقَتْلى غَيْرَ أَنَّ منِيَّتى
تَأَنَّتْ ولَمْ أَسْتَكْمِلِ الرِّزْقَ مِنْ أَجْلِى

فلما سمع معاوية انشاده والنار تتوقد من فيه قال مهلا يا اخا العرب اذكر قصتك وأفصح عن أمرك قال يا امير المومنين كانت لى زوجة وهى ابنة عمى وكنت لها محبا وبها كلفا وكنت بها قرير العين طيب العيش وكانت لى مرمة من الابل وكنت أستعين بها على قيام حالى وكفاف أودى فأصابنا سنة ذات قحط شديد أذهب الخف والظلف وبقيت لا أملك شيأ فلما قل ما بيدى وذهب حالى ومالى بقيت مهانا ثقيلا على وجه الأرض قد أبعدنى من كان يشتهى القرب منى وأزور عنى من كان يرغب فى زيارتى فلما علم أبوها ما بى من سوء الحال وشر المال اخذها منى وسألنى الفراق وجحدنى وطردنى وأغلظ علىّ فأتيت الى عامل مروان بن الحكم مستصرخا وبه راجيا لينصرنى فاحضر اباها وسأله عن حالى قال لا أعرفه قبل اليوم فقلت أصلح الله الامير ان راى ان يحضرها ويسألها عن قول ابيها فليفعل فبعث اليها مروان واحضرها مجلسه فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الاعجاب فصار لى خصما وعلى منكرا وانتهرنى وأظهر لى الغضب وبعث بى الى السجن فبقيت كانما خررت من السماء فى مكان سحيق ثم قال لابيها هل لك ان تزوجها منى على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك وانا ضامن لك خلاصها من هذا الاعرابى

فرغب ابوها فى البذل وأجابه لذلك فلما كان من الغد بعث الىّ وأخرجنى من السجن وأوقفنى بين يديه ونظر الىّ كالاسد الغضبان وقال يا أعرابىّ طلّق سعدى قلتُ لا أقدر على هذا فسلّط علىّ جماعةً من غلمانه فاخذوا يعذّبونى بأنواع العذاب فلمْ أجدْ بدّا من ذلك ففعلتُ فأعادونى الى السجن فمكثتُ فيه الى ان انقضتْ عدتُها فتزوّجها ودخل بها وقد اتيتُك راجيا وبك مُستجيرا واليك ملتجيًا ثم أنشد شعْر

فى القلب منّى نارْ والنارُ منها استعارْ
والجسْمُ منّى سقيمْ فيه الطّبيبُ يحارْ
وفى فؤادى جمْر والجمْرُ فيه شرارْ
والعينُ تهطل دمْعًا فدمْعُها مدْرارْ
وليْسَ الّا بربّى ثمّ الامير انتصارْ

ثمّ اضطرب واضطكت لها وخرّ مغشيًّا عليه واخذ يتلوّى كالحيّة المقتولة فلما سمع كلامه وانشاده قال تعدّى وظلم ابن الحكم فى حدود الدين واجترى على حرم المسلمين ثم قال والله يا اعرابىّ لقدْ أتيتنى بحديث لمْ اسمعْ بمثله قطّ ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب الى مروان بن الحكم قد بلغنى أنّك اعتديتَ على رعيّتك وانتهكتَ حرمةً من المسلمين وتعدّيتَ فى

Digitized by Google

حُدودَ الدين ويَنْبَغى لِمَنْ كان والِيًا ان يَغُضَّ بَصَرَه عن شَهَواتِه ويزجُرَ نفْسَه عن لذّاتِه ثم كتَب اليه بعدَ كَلام اختصرتُه هُنا يهدّده به نَظمًا وهو هذا الشعر

وَلِيتَ وَيْحَكَ أَمْرًا لَسْتَ تُدْرِكُه فَٱسْتَغْفِرِ اللّٰه مِنْ فِعْلٍ أَمَرَى زَانِى
وَقَدْ أَتَانا الفَتَى المِسْكِينُ مُنْتَحِبًا يَشْكُو الينا بِبَيْتٍ ثُمَّ إِحْزَانِ
أُعْطِى الإِلٰهَ يَمِينًا لا أُكَفِّرُها نَعَمْ وَأَبْنَاءِ مِنْ دِينى ودُنْيَانِ
انْ انت خَالَفْتَنى فيها كتَبْتُ به لَأَجْعَلَنَّكَ لُحْمًا بَيْنَ عقبان
طَلِّقْ سُعادَ وَعَجِّلْها مجهَّزَةً مع الكُمَيْتِ ومَعْ نَصْرِبْنِ ديبانِ

ثم طَوَى الكتابَ وطَبَعه بخاتَمه واستدعى الكُمَيتَ ونَصْرَ بن ديبان وكان يَسْتَنْهِضهما فى قضاء الحوايج لأَمانتِهما قال فاخَذاه وسارا حتّى قَدِما المَدينةَ فدخَلوا على مروان بن الحكم فسلّما اليه الكتابَ فقَصَّه وقراه فارتعدت فَرايصُه فطلّقها فى الحال وبعَث بها إلى أَميرِ المُؤمنين وكَتَبَ كِتابًا فقَرَاه مُعاويةُ فقال لقد أَحْسَن فى الطاعةِ وأَطْنَبَ فى حُسْنِ الجارية فلمّا راى معاوية الجارية رأَى صُورةً لم يَرَ مِثْلها فى الحُسْنِ والقَدِّ والجَمالِ فخاطَبها فوجَدها أَفْصَحَ النِّساء بعُذوبةِ مَنْطِق فقال علىَّ بالاعرابىِّ فأُتِىَ اليه وهو على غايةٍ من سُوءِ الحالِ فقال يا اعرابىُّ هل لَكَ عنها من سَلْوة وأُعَوِّضك ثلاثَ جوارٍ بِكْرٍ مَع كلِّ جارية أَلْفُ دينار وأُقسِم لك من بيتِ المال ما يَكْفيك

Digitized by Google

ويُعينك على صُحْبَتِهنّ فلمّا سَمِع الاعرابى كَلامَ معاويةَ شَهَق شَهْقةً ظَنَّ معاويةُ انّه قد مات فقال له معاويةُ ما بالُك فقال شرُّ بال واسوأُ حالٍ استجَرْت بعَدْلِك من جَوْر ابن الحكم فبمَنْ أستجيرُ من جَوْرك ثمّ أنشَد هذه الأبياتَ شعرًا

لا تَجْعَلَنّى فَداك اللهُ من مَلِكٍ كالْمُستجيرِ من الرّمْضاء بالنارِ
ارْدُدْ سُعادَ على حَيْران مُكْتئِبٍ يُمسى ويُصبِحُ فى هَمٍّ وتَذْكارِ
أَطْلِقْ وَثاقَ ولا تَبْخَلْ عَلَىَّ بها فإنْ فَعَلْتَ فإنّى غيرُ كَفّارِ

ثمّ قال واللهِ يا اميرَ المؤمنين لو اعطيتنى ما حَوَتْه الخلافةُ ما اعتَضْتُه دُونَ سُعْدى ثمّ انشد هذا البيتَ

أَنَى القَلْبُ إلّا حُبَّ سُعْدَى وبُغْضتْ الىَّ نِساءً ما لَهُنّ ذُنُوبُ

قال معاوية يا اعرابىّ انتَ مُقِرٌّ انّك طَلَّقْتَها ومروان مُقِرٌّ انّه طَلَّقها ونحنُ نخيّرها فإنْ اختارت سواك زوَّجْناها منه وان اختارَتْ رجَعْنا بها إليْك قال افعَلْ فلا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العَلِيِّ فقال لها معاويةُ ما تَقُولينَ يا سُعْدَى ايُّما احَبُّ اليك اميرُ المومنين فى عِزّه وشَرَفه وسُلْطانه وقُصوره وما تَصيرين عِنْده او مروان بن الحكم فى عَسْفه وجَوْره او هذا الاعرابىّ مع جُوعِه وفَقْره وسُوء حالِه فانشدت هذين البيتين شعرًا

هذا وان كان فى جُوعٍ واِضْرارِ أَعَزُّ عِنْدِى من قَوْمى ومِنْ جَارِ
وصاحِب التاجِ اومَرْوان عـامِلِه وكُلِّ ذى دِرْهمٍ عِنْدِى ودِينارِ

ثم قالت واللهِ يا اميرَ المؤمنين ما انا بخَاذِلتِهِ لحـادِثةِ الزمان ولا لِغدَراتِ الايّامِ وانّ لى مَعَهُ صُحْبة قديمة لا تُنْسَى ومحبّة لا تُبْلَى وانا احقُّ من صَبْرٍ معه عـلى الضّرّاء كمـا تنعّمتُ معه فى السّـرّاء فتعجّب معاوية من عَقْلها ومُروّتِهـا وامَر لها بعَشرة الافِ دِرْهمٍ وردّها بعَقْدٍ صحيح

للفخر الرازى

الفصل الاول فى الامور السلطانية والسياسات الملكية

أَمَّا الكَلامُ على أَصْلِ المُلْكِ وحَقِيقَتِهِ وانْقِسَامِهِ الى رِيَاسَاتٍ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَاوِيَّةٍ من خِلافةٍ وسَلْطَنَةٍ وَإِمَارَةٍ وَوِلَايَةٍ وما كان مِنْ ذلك على وَجْهِ الشَّرْعِ وما لم يَكن ومَذَاهِبِ أَصْحَابِ الآرَاءِ فى الإمامَةِ فليس هذا الكتابُ مَوْضُوعًا للبَحْثِ عنه وانما هو مَوْضُوعٌ للسِياسَةِ والآدابِ التى يُنْتَفَعُ بها فى الحوادث الواقعةِ والوقايعِ الحادِثَةِ وفى سِيَاسَةِ الرَّعِيَّةِ وتَحْصِينِ المملكة وفى إِصْلَاحِ الأَخْلَاقِ والسِيرَةِ فأَوَّلُ ما يقال أَنَّ المَلِكَ الفاضلَ هو الذى اجتمعت فيه خِصَالٌ وعدِمَتْ فيه خِصَال فامّا الخصال التى تُسْتَحَبُّ ان تُوجَدَ فِيهِ فمنها العَقْل وهو أَصْلُهَا وأَفْضَلُهَا وبه تُسَاسُ الدُوَلُ بل المِلَل وفى هذا الوَصْفِ كِفَايَةٌ ومنها العَدْلُ وهو الذى تُسْتَغْزَرُ به الأَمْوَالُ وتُعْمَرُ به الأَعْمَالُ وتُسْتَصْلَحُ به الرِّجَالُ ولما فتح السلطانُ هُولَاكو بَغْدَادَ فى سَنَةِ سِتٍّ وخَمْسِينَ وستِّمِئَةٍ أَمَرَ انْ يُسْتَفْتَى العُلَمَاءُ أَيُّمَا أَفْضَلُ السلطانُ الكافِرُ العَادِلُ او السلطانُ المُسْلِمُ الجَائِرُ ثم جَمَعَ العُلَمَاءَ بالمُسْتَنْصِرِيَّةِ لذلك فلما وَقَفُوا على الفَتْيَا

احجموا عن الجواب وكان رضى الدين علىّ بن طاووس حاضرا هذا المجلس وكان مقدّما محترما فلما راى احجامهم تناول الفتيا وضع خطّه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر فوضع الناس خطوطهم بعده ومنها العلم وهو ثمرة العقل وبه يستبصر الملك فيما يأتيه ويذره ويأمن الزلل فى قضاياه وأحكامه وبه يتزيّن الملك فى عيون العامّة والخاصّة ويصير به معدودا فى خواصّ الملوك قال بعض الحكماء الملك اذا كان خلوا من العلم كان كالفيل الهايج لا يمرّ بشىء الا خبطه ليس له زاجر من عقل ولا رادع من علم واعلم انه ليس المراد بالعلم فى الملوك هو تصوّر المسايل المشكلة والتبحّر فى غوامض العلوم والاغتراق فى طلبها قال معوية ما أقبح بالملك ان يبالغ فى تحصيل علم من العلوم وانما المراد من العلم فى الملك هو أن لا يكون له انس بها بحيث يمكنه ان يفاوض ارابها فيها مفاوضة يندفع بها الحال الحاضر ولا ضرورة فى ذلك الى التدقيق كان مؤيّد الدين محمّد بن العلقمى وزير المستعصم وهو آخر وزراء الدولة العبّاسيّة يفاوض كل من يدخل عليه من العلماء مفاوضة عاقل لبيب محصّل ولم يكن له بالعلوم ملكة ولا كان مرتاضا بها رياضة طايلة وكان بدر الدين لولو صاحب الموصل لكثرة مجالسة الافاضل وخوضه فى الأشعار والحكايات يستنبط المعانى

Digitized by Google

الحسنة ويتنبّهُ على النكت اللطيفة مع انه كان اميًّا لا يكتب ولا يقرأ وكان عزّ الدين عبد العزيز بن جعفر النيسابوريّ رحمهُ الله لمجالسة أهل الفضل ولكثرة معاشرتهم له صار يتنبّهُ على معان حسنة ويحلّ الالغاز المشكلة اسرع منهم ولم يكن له حظّ من علم وما كان يظهرُ للناس الا انه رجلٌ فاضلٌ وخفي ذلك حتّى على الصاحب علاء الدين فإنّ ابن الكبوش الشاعر البصريّ عمل بيتين في الصاحب ونسبهما الى عبد العزيز وهما

عطا ملكٌ عطآؤك ملك مصرٍ ... وبعضُ عبيد دولتك العزيز
تجازي كلّ ذي ذنبٍ بعفوٍ ... ومثلك من يجازي او يجير

فأنشدهما عبد العزيز بحضرة الصاحب وادّعاهما وخفي الامر على الصاحب وما ادري من ايهما اعجبُ أمن الصاحب كيف خفي عنه حالُ عبد العزيز مع انه السنين الطويلة يعاشرهُ في سفرٍ وحضرٍ وجدٍّ وهزلٍ أو من عبد العزيز كيف رضي لنفسه هذه الرذيلة واقدم على مثل هذا مع الصاحب وما خاف من تنبّه الصاحب واستدراكه لفعله وتختلف علومُ الملوك باختلاف اراييهم فاما ملوك الفرس فكانت علومهم حكما ووصايا وادابا وتواريخ وهندسة وما اشبه ذلك واما علومُ ملوك الاسلام فكانت علومُ اللسان كالنحو واللغة والشعر والتواريخ حتى ان اللحن كان عندهم

من افحش عيوب الملك وكانت منزلة الانسان تعلو عندهم بالحكاية الواحدة والبيت الواحد من الشعر بل باللفظة الواحدة من اللغة واما في الدولة المغولية فرفضت تلك العلوم كلها ونفقت فيها علوم أخر وهي علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج والطب لحفظ الابدان والامزجة والنجوم لاختيار الاوقات وما عدا ذلك من العلوم والآداب فكاسد عندهم وما رايته نافقا الا بالموصل في ايام ملكها المشار اليه مد الله ظله ونشر فضله ومنها الخوف من الله تعالى وهذه الخصلة هي اصل كل خير ومفتاح كل بركة فان الملك متى خاف الله أمنه عباد الله روى ان عليا أمير المؤمنين عليه السلم استدعى بصوته بعض عبيده فلم يجبه فدعاه مرارا فلم يجبه فدخل عليه رجل وقال يا امير المؤمنين انه بالباب واقف وهو يسمع صوتك ولا يكلمك فلما حضر العبد عنده قال اما سمعت صوتي قال بلى قال فما منعك من اجابتي قال أمنت عقوبتك قال عليه السلم الحمد لله الذي جعلني ممن يأمنه خلقه وما احسن قول ابي نواس لهرون الرشيد

قد كنت خفتك ثم أمنني ... من أن أخافك خوفك الله

ولم يكن الرشيد يخاف الله وافعاله باعيان آل علي عليه السلم وهم اولاد بيت نبيه لغير جرم يدل على عدم خوفه

مِنَ اللهِ تَعَالى ولَكِنَّ ابا نُوَاسٍ جَرَى فى قَوْلِه عَلَى عَادةِ الشُّعَرَاءِ ومنها العفو عن الذُّنُوبِ وحُسْنُ الصَّفْحِ عن الهَفَوَاتِ وهذه أَكْبَرُ خِصَالِ الخَيْرِ وبها تُسْتَمَالُ القُلُوبُ وتَصْلُحُ النياتُ فَمِمَّا جاء فى التَّنْزِيلِ من الحَثِّ على ذلك قولُهُ تعالى شَانُهُ وَلْيَعْفُوا او لِيَصْفَحُوا الا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُم وكان المامُونُ حَلِيمًا حَسَنَ الصَّفْحِ مَعْرُوفًا بِذٰلِكَ فَهَجَاهُ دِعْبِل الشَاعِرُ بِأَشْعَارٍ كثيرة من جُمْلَتِهَا

إِنِّى مِنَ القَوْمِ الذِينَ سُيُوفُهم قَتَلَتْ أَبَاكَ وشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ
شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طُولِ خُمُولِهِ وَاسْتَنْقَذُوكَ من الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

فلما بلغه هذا القَوْلُ لَمْ يَزِدْ على أَنْ قَالَ قَاتَلَهُ اللهُ ما أَفَدَّ بُهْتَانَهُ كُنْتُ خَامِلًا وفى حَجْرِ الخِلَافَةِ نَشَأْتُ وَبَدَرِهَا أُرْضِعْتُ ولما بَلَغَهُ أَنَّ دِعْبِلًا قد هَجَاهُ قال مَنْ أَقْدَمَ على هِجَاءِ وَزِيرِى ابى عَبَّادٍ كَيْفَ لا يُقْدِمُ على هِجَائِى وهذا اللَّائِمُ ظَاهِرُهُ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ وهو يَحْتَاجُ الى تاويل فانّه عَكْسُ المَعْهُودِ قَدْ كَانَ يَنْبَغِى ان يَقُولَ الوَزِيرُ مَنْ أَقْدَمَ على هِجَاءِ الخَلِيفَةِ كَيْفَ لا يُقْدِمُ على هِجَائِى ومَعْنَى قَوْلِ المامُون انَّ مَنْ أَقْدَمَ على هِجَاءِ ابى عَبَّادٍ مع حِدَّتِهِ وهَوَجِهِ وتسرُّعِهِ وكان ابو عَبَّادٍ كذلك كيف لا يُقْدِمُ علىّ فى حِلْمِى وصَفْحِى ولو لا خَوْفُ الاطالةِ لذكَرْتُ جَمَاعَةً من حُلَمَاءِ المُلُوكِ فى هذا المَوْضِعِ ولَكِنْ ليس هذا الفَصْلَ مَوْضُوعًا

للسَّمَرِ وسَيَرِدُ من ذلك ما يَمْنَعُ ان شآء الله فى الفَصْل الثانى ومنهم من كان يَـرَى انَّ لِلْحِقْدِ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ فى الملك قال بُزُرْجُـمِهْر يَجِبُ انْ يكونَ المَلِكُ احْقَدَ مِنْ جَمَلٍ وانَا أُنَاقِشُهُ فى هذا القَوْلِ فاقول كَيْفَ يُقال كـذلك والملـك متى كـان حَقُودًا فَسدَتْ نِيَّتُه لرعيّته فَقَتَلَهُمْ وقَلَّـلَ الالْتفـاتَ اليهـم والشَّفَقَةَ عليهم ومتى أَحَسُّوا بِذلك تغيَّرتْ نِيَّاتُهُمْ له وفَسَدَت بَوَاطِنُهُمْ وهل يَتمكَّنُ المَلِكُ مِمَّا يُرِيدُه من مُهِمَّـاتِ مَمْلَكَتِه وبُلوغ أَغْرَاضِه كما فى نفْسِه الاّ بِصَفَاء قُلوبِ رَعِيَّتِه واىُّ حكمةٍ فى ذلك وهَلْ فيه سِوَى تَنْغيص عَيْشِ المَلِك وتَبْغيض رَعِيَّتِه اليه واجْتَـاشهم منه قال شَاعِرُ العَرَب وَلا أَجْهَلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمِ وَلَيْس رَئِيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقدَا خُصُوصًا والناسُ مركَّبون على الخَطَاء مَجْبُولون على تَشْمِيرِ الطِّبَاعِ فما اكْثَرَ ما تَصْدُرُ منهم مُوجِبَاتُ الحِقْدِ فلا يَزَالُ المَلِـكُ طُولَ دَهْرِه يُعَانى من الغَيْظ والحِقْدِ عَلَيْهِمْ مَا يَنْغَصُ عليه لَـذَّتَهُ وَيَشْغَلُهُ عن كَثِيرٍ من مَهَامِّ مَمْلَكَتِه وَمَا اكْثَرَ ما رَأَيْنَا الرَّعِيَّةَ والجُنْدَ قَدْ وَثَبُوا على مُلوكِهِمْ فَسَلَبُوهـم رِدَآءَ المَمْلَكَـة بل رِدَاء الحَيَـاة فابْتَدِه من عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ وقد وَثَبَ عليه ابـو لُؤْلُؤَةَ عَبْدُ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ فَقَتَلَهُ ثم ثَنَّى بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضى اللهُ عنه وَانْظُرْ كَيْفَ اجْتَمَعَ عليه رَعِيَّتُه مِنْ كُلِّ جَـانِبٍ فَحَاصَرُوهُ فى داره أَيَّامًا ثم دَخَلُوا عليه

Digitized by Google

فقتلوه والمصحف فى حجره حتى قطرت قطرات من دمه على المصحف
ثم ثلث بعلي بن ابى طالب عليه السلم وقد ضربه عبد الرحمان
ابن ملجم لعنه الله بسيفه على أم رأسه بالكوفة فقتله وكان ابن
ملجم من الخوارج هذا فى الصدر الأول والناس ناس والدين دين
ثم تنقل دولة دولة وأيما فايما الى اواسط دولة بنى العباس فانظر
منذ عهد المتوكل الى عهد المقتفى ما جرى على واحد من
الخلفاء من القتل والخلع والنهب بسبب تغير نيات جنده ورعيته فهذا
سيل وذاك قتل والاخر عزل ثم اسرح طرفك فى الدولتين البويهية
والسلجوقية تر من هذا الباب عجبا ثم ارجع البصر الى اونك خان
ملك الترك كيف لما تنكرت نيته على جنكزخان وحقد عليه
أشياء عرضها عليه عنده حساده وأراد الوقيعة به واعلمه به الصبيان
رحل من ليلته ثم حشد وجمع ووثب على اونك خان فقتله
وملك ممالكه فتعلم أن الحقد من اضر الأشياء للملك وان أوفق
الاشياء له الصفح والعفو والغفران والتناسي وما احسن قول القايل

اقبل من الناس ما تيسر ودع من الناس ما تعسر
فانما الناس من زجاج ان لم ترفق به تكسر

وقد مدح بعض الشعراء الحقد ولم يسمع بمن مدح الحقد غير هذا

وما لِلْحَمْدِ الاّ تَـوَلُّمُ الشُّكْرِ فى السَّقَمِ
وبَعْضُ السَّجَـايَا يَنْتَسِبْنَ الى بَعْضِ
وحَيْثُ تَرَى حِقْدًا على ذِى إِسَاءَةٍ
فَثَمَّ تَرَى شُكْرًا على سَـالِفِ القَرْضِ
إِذا الارضُ أَدَّتْ رَبْعَ ما أَنْـتَ زارِعٌ
مِنَ البَذْرِ فِيهَا فهى ناهِيكَ من أَرْضِ

وهذا قَوْلٌ لا يُعَرَّجُ عليه وإِنْ عَرَّجَ عليه احَدٌ فَلْيُعَرِّجْ عليه غَيْرُ المَلِكِ فإِنَّ المِلكَ احْوَجُ لِلْخَلْقِ الى استِصْلاحِ النيَّات واستِصْفَاءِ القُلُوب ومن الخِصال التى يُسْتَحَبُّ انْ يكـونَ فى المِلـكِ اللَّزِمِ وَهُوَ الأَصْلُ فى ٱسْتِمَالَةِ القُلُوبِ وتَحْصِيلِ النَّصَايِحِ مِنَ العَالَمِ والاستِخْدامِ الأَشْرَافِ قال الشاعر

اذا مَلِكٌ لم يَكُنْ ذا هِبَهْ فـدَعْهُ فَدَوْلَتُـهُ ذاهِبَـهْ

ومِمَّا جـاء فى الحـديث النبوىّ صلواتُ الله على صـاحبِهِ تَجاوَزُوا عن ذَنْبِ السَّخِيِّ فإِنَّ اللهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمـا عَثَرَ وَفاتِحٌ عليه كُلَّمَا أَفْتَقَرَ وقال علىٌّ عليه السَّلَمُ الجُودُ حَارِسُ الأَعْرَاضِ وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لم يَتَضَمَّنْ سِيرَةً من حكاياتِ الجُودِ مِثْلُ ما نُقِلَ عن قَانِ العادِلِ وهو اوكَتَـاى بن جنكزخـان فانّـه غَـبَّرَ فى وُجُـوهِ جَمِـيعِ كرام الملوك مَنَاقِبٌ تَفْتُقُ ما رَقَعْتُمْ مِنْ جُودِ كَعْبٍ وَسَمـاحِ حَـاتِمِ

Digitized by Google

ومن الاتّفاقات الحسنة وُجودُه فى عَصْرِ المُسْتَنْصِر باللهِ وكان المُسْتَنْصِرُ اكْرَمَ من الرِيحِ ولكنْ اينَ يقعُ جُودُه من جُودِ فانٍ ومن اينَ للمُسْتَنْصِرِ مالٌ يَفى بعَطَايَا فانٍ ومنها الهيبة وبها يُحفَظ نظامُ المَمْلَكَةِ ويُحرَسُ من أَطْماعِ الرَّعِيَّةِ وقد كان الملوكُ يُبالِغُونَ فى اقامَةِ الهَيْبَةِ والناموسِ بارْتباطِ الأُسُودِ والفيلة والنمور وضَرْبِ البُوقاتِ الكبارِ كَبُوقِ النَفيرِ والدَبادِبِ ورفع . . . . لاثباتِ الهَيْبَةِ فى صُدورِ الرعيّة ولاقامةِ ناموسِ المملكة كان عَضُد الدَوْلة اذا جَلَسَ على سريره أُحْضِرَتْ الاسُودُ والفيلة والنمور فى السلاسل وجُعِلَتْ فى حَواشى مَجْلسه تَهْويلًا بذلك على الناس وتَرْويعًا لهم ومنها السِيَاسَةُ وهى رَأْسُ مالِ الملكِ وعليها التَّعْويل فى حَقْنِ الدماءِ وحَفْظِ الأَمْوالِ وَتَحْصينِ الفُرُوجِ ومَنْعِ الشُرُورِ وقَمْعِ الدُعّارِ والمُفسدينَ والمَنْعِ من التَظالُمِ المُؤَدّى الى الفِتْنَةِ والاضْطِرابِ ومنها الوَفاءُ بالعَهْدِ قال تعالى سُلْطانُهُ وأَوْفُوا بالعَهْدِ انّ العَهْدَ كان مَسْؤولًا وهو الأَصْل فى تَسْكينِ القُلوبِ وطُمَانينَةِ النُفوسِ ووُثوقِ الرَعِيَّةِ بالملكِ اذا طَلَبَ الأَمانَ منهُ خائفٌ او أَرادَ المُعاقَدَةَ منهُ مُعاهِدٌ ومنها الاطِّلاعُ على غَوامِضِ أَحْوالِ المَمْلَكَةِ ودَقايقِ امورِ الرَعِيَّةِ ومُجازاةُ المُحْسِنِ على إحْسانِهِ والمُسِئ على إساءَتِهِ كان اردشيرُ الملكُ يقول لِمَنْ شاءَ مِنْ أَشْرافِ رَعِيَّتِهِ وأَوْضاعِهِمْ كانَ البارِحَةَ من حالِكَ كَيْتَ وكَيْتَ حتى صارَ يقال

إنّ اردشيرَ ياتيهِ مَلَكٌ من السماء يُخبِرُه بالأُمورِ وما ذاكَ إلّا لتيقُّظِهِ وتَفَطُّنِهِ فهذه عَشْرُ خِصالٍ من خِصالِ الخَيْرِ مَنْ كُنَّ فيهِ استَحَقَّ الرِّياسَةَ الكُبْرَى ولَوْ نَظَرَ اصْحابُ الآراءِ والمَذاهِبِ حَقَّ النَّظَرِ وتَرَكُوا الهَوَى لكانَتْ هٰذِهِ الشَّرائِطُ هِيَ المُعْتَبَرَةَ فى استِحقاقِ الإمامةِ وما عَداها فَغَيْرُ طائِلٍ وقالَ بُزُرْجِمِهْرُ يَنْبَغِي ان يَكونَ الملكُ كالارضِ فى كِتْمانِ سِرِّهِ وصَبْرِهِ وكالنّارِ على أَهْلِ الفَسادِ وكالماءِ فى لِينِهِ لِمَنْ لايَنَهُ وينْبَغِي أَنْ يَكُونَ اسْمَعَ من فَرَسٍ وابْصَرَ مِنْ عُقابٍ واهْدَى مِنْ قَطاةٍ واشَدَّ حَذَرًا من غُرابٍ واعظَمَ اقْداما من الأَسَدِ وأَقْوى واسْرَعَ وُثُوبًا مِنَ الفَهْدِ ويَنْبَغِي للملكِ انْ لا يَسْتَبِدَّ برأيِهِ وأَنْ يُشاوِرَ فى المُلِمّاتِ خَواصَّ النّاسِ وعُقَلاءَهم وَمَنْ يَتَفَرَّسُ فيهِ الذَّكاءَ والعَقْلَ وجَوْدَةَ الرّأيِ وصِحَّةَ التَّمْييزِ ومَعْرِفَةَ الأُمورِ ولا يَنْبَغِي أَنْ يَمْنَعَهُ عِزَّةُ المُلْكِ مِنْ ايناسِ المُسْتَشارِ وبَسْطِهِ واسْتِمالَةِ قَلْبِهِ حَتّى يَمْحَضَهُ النَّصيحَةَ فَانَّ أَحَدًا لا يَنْصَحُ بالقَسْرِ ولا يُعْطِى نَصيحَتَهُ الا بالرَّغْبَةِ وما احْسَنَ قَوْلَ الشّاعِرِ فى هٰذا المَعْنَى

أَفانْ وأُقْصَى ثُمَّ يَسْتَنْصِحونَنِي وَمَنْ ذا الّذِي يُعْطِي نَصيحَتَهُ قَسْرَا

قال الله تعالى وشاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يُشاوِرُ أَصْحابَهُ دائِمًا لَمّا كانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ خَرَجَ عليه السلامُ من المدينةِ فى جَماعَةِ المسلمينَ فلمّا وَصَلوا بَدْرًا نَزَلوا على

غير ماء فقام اليه رجلٌ من اصحابه وقال يا رسولَ اللهِ فنزولك هاهنا شيءٌ أمرَكَ اللهُ به أو هو من عندِ نفسك قال بل هو من عندِ نفسي قال يا رسولَ اللهِ انَّ الصوابَ أنْ تَرْحَلَ وتَنْزِلَ على الماء فيكونُ الماءُ عِنْدَنا فلا نُخافُ العَطَشَ واذا جاء المُشْرِكُونَ لا يَجِدُونَ ماءً فيكون ذلك مُعينًا لنا عليهم فقال رسولُ الله صَدَقْتَ ثُمَّ أمَرَ بالرَّحيل ونَزَلَ على الماء واختلفَ المتكلمونَ في كَوْنِ اللهِ تعالى أمَرَ رسولَهُ بالاستشارة مَعَ أنَّهُ أيَّدَهُ ووفَّقَهُ وفي ذلك أربعةُ وُجوهٍ احدها انهُ عليه السلمُ امرَهُ بمشاورةِ الصحابة استمالةً لقلوبهم وتطييبًا لنفوسهم الثاني انهُ أُمِرَ بمشاورتهم في الحربِ ليستقرَّ له الرأي الصحيحُ فيعملَ عليه الثالث انه امرَ بمشاورتهم لما فيها من النفعِ والمصلحة الرابعُ انه انما أُمِرَ بمشاورتهم ليقتدي به الناسُ وهذا عندي احسنُ الوجوهِ واصلحها قالوا الخطاء مع المشورةِ اصلحُ من الصوابِ مع الانفرادِ والاستبدادِ وقال صاحبُ كليلة ودمنة لا بُدَّ للملكِ من مستشارٍ مأمونٍ يفضي اليه بسرِّهِ ويعاونهُ على رأيهِ فانَّ المستجيرَ وان كان افضلَ من المستشارِ واكمل عقلًا وأصحَّ رأيًا فقدْ يزدادُ برأيِ المشيرِ رأيًا كما تزدادُ النارُ بالدهنِ ضوءًا ونورًا قال الشاعر

اذا أعْوَزَ الرأيُ المشورةَ فاستشرْ برأيِ نصيحٍ أو مشورةِ حازمِ

واعلمْ انَّ للملكِ أمورًا تختصُّهُ بها عن السوقةِ فمنها اذا

أَحَبَّ شيأً أَحَبَّهُ الناسُ واذا أَبْغَضَ شيـاء ابْغَضَهُ النـاسُ واذا لَهِجَ بِشَيْءٍ لَهِجَ به الناسُ إمّا طَبْعًـا او تَتَطَبُّعًـا لِيَتَقَرَّبوا بذلك الى قَلْبِهِ ولذلك قِيلَ الناسُ على دِينِ مُلُوكِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ زِيُّ النّاس فى زَمَنِ الخُلَفاء فلمّـا ملـكَتْ هذه الدولةُ اسْبَغَ اللهُ احْسَـانًا وأَعْلى شانَهَا غَيَّرَ الناسُ زِيَّهُمْ فى جميعِ الأَشْيـاء وَدَخَلُوا فى زِيِّ مُلُوكِهِمْ بالنُّطْقِ واللِّبَاسِ والآلات والرُّسُوم والآداب من غَيْرِ أَنْ يُكَلِّفُوهُمْ ذلك او يامُروهم به او يَنْـهَوْهُم عنه ولكـنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ زِيَّهُم الاوّل مستَهْجَنٌ فى نَظَرِهِمْ مُنافٍ لاخْتِيارِهِمْ فَقَرَّبُوا الـيهـم بزِيِّـهـم وما زال الملوك فى كل زمانٍ يَخْتَارُونَ زِيًّا وَفِنًّـا فَيَمِيل النـاسُ اليه ويُهْجَونَ به وهـذا من خَوَاصِّ الدَّوْلَـة وأَسْرَار المُلْكِ ومن خَوَاصِّ المَلِكِ ان صُحْبَتَه تُورِثُ النيهَ والكِبرَ وتُقَوِّى القَلْبَ وتكثِير النَّفْسَ ولَيْسَتْ صُحْبَةُ غَيْرِ المَلِكِ تَفْعَل ذلك ومن خواصِّهِ انه اذا أَعْرَضَ عن انسـان وَجَدَ ذلك الانسانُ فى نَفْسِهِ ضَعْفًا وإِنْ لم يَنَلْهُ بِمَكْرُوه واذا أَقْبَلَ على انسانٍ وجَدَ ذلك الانسانُ فى نَفْسه قُوَّةً وإِنْ لم يُصِبْهُ منه خَيْرٌ بَلْ مُجَرَّدُ الإِعْرَاضِ والإِقْبـالِ يَفْعَلُ ذلك وليس أَحَدٌ من النـاس بهذه المنزلة غَيْرُ السُّلْطـانِ واما الخصـال التى تُسْتَحَبُّ ان تكون مَعْلُومَةً فيه فقد ذكرهـا ابن المقفّع فى كلام له قال ليس للملك ان يَغْضَبَ لأَنَّ القُدْرَةَ مِنْ وَرَاء حَاجَتِهِ وليس له ان يَكْذِبَ لانه لا يَقْدِرُ احَدٌ على

الزامه بغير ما يُريدُ وليس له ان يبخل لانه أقلُّ الناسِ عُذرًا فى خَوْفِ الفقرِ وليس له ان يكون حقودًا لانّ قدرَهُ قد عَظُمَ عن المجازاةِ لاحدٍ على اساءةٍ صَدرَتْ منه وليس له ان يَحْلِفَ اذا حَدَّثَ لأنّ الذى يحملُ الانسانَ على اليَمينِ فى حَديثِهِ خِلالٌ امّا مَهانَةٌ يَجِدُها فى نَفْسِهِ واحْتياجٌ الى ان يُصَدِّقَهُ الناسُ وامّا عِيٌّ وحَصَرٌ وعَجزٌ عَنِ الكَلامِ فيُريدُ أنْ يَجْعَلَ اليَمينَ تَتِمَّةً لِكَلامِهِ أوْ حَشْوًا فيهِ وامّا أنْ يكونَ قَدْ عَرَفَ انَّهُ مَشْهُورٌ عند الناسِ بالكَذِبِ فهو يَجْعَلُ نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لا يُصَدِّقُ ولا يُقْبَلُ قَوْلُهُ الاّ باليَمينِ وحينئذٍ كُلَّما ازْدادَ ايْمانًا ازْدادَ النَاسُ له تَكْذيبًا والمَلَكُ بمعْزِلٍ عن هذه الدَنايا كُلِّها وقَدْرُهُ اكْبَرُ مِنْ ذلك ومن الخِصالِ التى يُسْتَحَبُّ ان تكون مَعْدُومةً فى المَلِكِ الخِفَّةُ فانّها رُبَّما أصْدَرَتْ عنه فِعْلا يَنْدَمُ عليه حين لا يَنْفَعُ النَدَمُ واكْثَرُ ما تَرَى الخِفَّةَ من الرِجالِ سَريعى الرُجوعِ ولذلك قال عليه السلم خَيْرُ أُمّتى حِدادُها ومِنَ الخِصالِ التى يُسْتَحَبُّ عَدَمُها فى المَلِكِ الضَجَرُ والسَأَمُ والمَلَلُ فذلك من أضَرِّ الأُمورِ وافْسَدِها لِحالِهِ

من الكتاب المسمى
بزبدة الحلب فى تاريخ حلب للشيخ كمال الدين ابى حفص عمر بن احمد بن هبة الله

فمرض (الملك الصالح) بالقولنج واشتدّ مرضه فدخل اليه طبيبه ابن سُكَرة اليهودىّ وقال له سرًّا يا مولانا شفاوك فى الخمر فان رايت ان تأذن لى فى حمله فى كمّى بحيث لا يطّلع اللالا ولا شادبخت ولا احدٌ من خلق الله على ذلك فقال له حكيم كنتُ والله اظنّك عاقلا ونبيُّنا صلّى الله عليه وسلّم يقول ان الله لم يجعل شفاء امّتى فيما حرم عليها وما يُؤمّنى ان اموت عقيب شربها فالقى اللهَ والخمرُ فى بطنى والله لو قال لى ملكٌ من الملئكة ان شفاوك فى الخمر لما استعملته حكى لى ذلك والدى عن ابن سُكَرة الطبيب ولما ايس من نفسه احضر الامرآء والمستحفظين واوصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين ابن عمّك ايضا وهو زوج اختك وكان والدك يحبّه ويوثره وهو تولّى تربيته وليس له غير سنجار فلو اعطيته البلد لكان اصلح وعز الدين له من البلاد من الفوت الى همذان ولا حاجة له الى بلدك فقال له ان هذا لم يغب عنّى ولكن قد علمتم ان صلاح الدين قد تغلّب على البلاد الشامية سوى ما بيدى ومتى سلّمت الى عماد الدين يعجز عن حفظها وانْ ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقامٌ وان

Digitized by Google

سلّمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا هذا القول منه وعجبوا من حسن رايه مع شدة مرضه وصغر سنّه ثم مات يوم الجمعة خامس وعشرين شهر رجب من سنة سبع وسبعين وخمس ماية ودُفن بقلعة حلب الى ان ابتنت والدته الخانكاه تجاه القلعة ونقل اليها فى ايام . . . . فسيّر الامراء جورديك والبصيرى وبزغش وجمال الدين شادبخت النوريون مع جماعة المماليك النورية الى عز الدين يستدعونه وجددوا الايمان فيما بينهم له واما علم الدين سليمان بن حيدر وحسام الدين طُمان بن غازى واهل الحاضر فانهم راسلوا صاحب سنجار وكتموا امرهم وشادبخت هو الوالى بالقلعة والحافظ لخزانتها والمدبّر للامور مع النورية فسيّر الى علم الدين سليمان وحسام الدين طُمان وطلب منهما الموافقة فى اليمين لعزّ الدين فماطلا ودافعا فلما تاخّر وصول عماد الدين عليهما وافقا على اليمين لعزّ الدين ولما وصل رسول الامير الى عزّ الدين سار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات فنزل على البيرة ووصل شهاب الدين اخو عماد الدين مختفيا واجتمع بطُمان وابن حيدر واعلمهما ان عماد الدين فى بعض الطريق فاحمروه باخذ اليمين عليهم وان تربّصه بالحركة احوَجَهم الى ذلك فعاد اليه اخوه وعرّفه فعاد الى بلاده واما عزّ الدين فحين وصل الى البيرة ارسل الى الامراء الذين بحلب واستدعاهم اليه فخرجوا والتقوه بالبيرة وساروا معه الى حلب ودخلها فى العشرين من شعبان واستقبله مقدّموها وروساؤها وصعد الى القلعة وكان تقى الدين عمر بن اخى الملك الناصر بمنبج فعزم على ان يحُول بين عز الدين وحلب حين وصل الى البيرة لانه وصل جريدة وتخلّف عنهم الغلمان والحشد ثم انه تثاقل هو واصحابه عن ذلك ولما وصل عز

الدين الى حلب سار تقى الدين من منبج الى حماة وثار اهل حماة ونادوا بشعار عز الدين فاشار عسكر حلب على عز الدين بقصدها وقصد دمشق واطمعوه فيها وفى غيرها من الشام واعلموه محبة اهل الشام لاهل بيته وكان الملك الناصر بالديار المصرية فلم يفعل وقال بيننا يمين ولا نغدر به ولما بلغ الملك الناصر اخْذ عز الدين حلب قال خرجت حلب عن ايدينا ولم يبق لنا فيها طمع واقام عز الدين بحلب فسير اليه اخوه عماد الدين زنكى بن مودود وقال كيف تختصّ انت ببلاد عمى وابنه وباموالهم دونى وهذا الامر لا صبر لى عنه وطلب منه تسليم حلب اليه وان ياخذ منه سنجار عوضا عنها فامتنع عز الدين ولم يجبه الى ما اراد فارسل اليه وهدده بان يسلّم سنجار الى الملك الناصر فيضايق الموصل بها فاشار عليه طايفة من الامراء باخذ سنجار منه واعطايه حلب وكان اشدّ الناس فى ذلك مجاهد الدين وهو الذى كان يتولى تدبيره وكان امراء حلب لا يلتفتون الى مجاهد الدين ولا يسلكون معه ما يسلكه عسكر الموصل فلذلك ميّل عز الدين الى ذلك وشرع عز الدين فى السعيل الى الامراء الذين حلفوا له اولا والاعراض عن الذين مالوا الى اخيه عماد الدين واحسن الى اهل حلب وخلع عليهم واجراهم على عاداتهم فى ايام عمه نور الدين وابنه الملك الصالح وابقى قاضيها والدى وخطيبها عمى ورئيسها صفى الدين طارق بن الطريرة على ولايتهم وولّى بقلعة حلب شهاب الدين اسحق بن اميرك الجاندار صاحب الرقّة وابقى شادبخت فى القلعة ناظرا معه وولى مدينة حلب والديوان مظفّر الدين بن زين الدين وكان الصلح قد انفسخ بموت الملك الصالح بين الفرنج والمسلمين وكانت شيج الحديد مناصفة بين المسلمين

Digitized by Google

والفرنج فاضافها عسكر حلب قبل وصول عز الدين الى الدربساك واختطفوا بها دون الفرنج وحصر اهلها الى طُمان فاعطاهم الامان فلما وصل عز الدين سيّر العساكر الى ناحية حارم وحاولوا نهب عمق فانحاز اهله كلهم الى شيح لعلمهم بانّ طمانا امنهم فاراد عسكر الموصل ان نهبوها فقال لهم ان شيح لحلب وانهم فى امان فلم يلتفتوا الى قوله وسار واليها ليلا فسبقهم الى المخاض ووقف فى وجوههم يردّهم فقتل منهم جماعة ثم تكاثروا وعبروا فسبقهم طمان الى شيح وامرهم ان يجعلوا النسآء فى المغايم وردّها فوصل عسكر الموصل فراوا ذلك فعزموا على القتال فصاح طمان انا كنتم تحفرون ذمتى فانا ارحل الى الفرنج وسار فى اصحابه الى ان قرب من يغرا فوصله من اخبره بانهم عادوا عنها ولم ينالوا منها طايلا وخافوا من ملامة عز الدين فعاد طمان ونزل كل منهم فى خيامه بحارم وكاتب المواصلة عز الدين يطلعنون على طمان وانه وافق اهل شيح فى العصيان واراد اللحاق بالفرنج فاحضر طمان والمواصلة وتقاتلوا بين يديه فقال عز الدين الحقّ مع حُسام الدين ولا يجوز نقض العهد لواحد من المسلمين وكان ذلك فى شهر رمضان من السنة وبقيت المواحشة بين امرآء حلب والمواصلة والحلبيّون لا يرون التغاضى لمجاهد الدين ومجاهد الدين يحاول ان يكونوا معه كامراء الموصل والامراء الحلبيون يمنّون عليه بانهم اختاروه لهذا الامر ويطلبون منه الزيادة ويختلق المواصلة عليهم الاكاذيب فهرب الامير علم الدين سليمان بن حيدر قاصدا الملك الناصر الى مصر فقالوا لعز الدين ان طمانا سيهرب بعده فامر عز الدين مظفر الدين بن زين الدين وبنى الغراف (والجوارحى) وغيرهم ان يمتدّوا من السعدى الى المباركة فى طريقه وان يقف

جماعة حول دار طمان وكان يسكن خارج المدينة فلما لم يجر من طمان شى من ذلك جاوا اليه نصف الليل وطلبوه فخرج اليهم فوجد ابن زين الدين وبنى الغرّاف فسالهم عن ما يريدون فقالوا انه انهى الى عز الدين بانك تريد الهرب وقد امرنا بان نعوقك فقال والله ما لهذا صحة ولو اردت المسير عن حلب لصبت لا على وجه الخفية ولا اخاف من احد فجعلوا لهم طريقا آخر الى نيل غرضهم واصبحوا وعز الدين منتظر ما يكون فقالوا له كان قد عزم على الهرب فلما علم ان الطريق قد اخذ عليه وان الدار قد احيط بها اخّر ذلك الى وقت ينتهز فيه الفرصة والمصلحة قبضه قبل هربه فامرهم بان يقبضوه محترما ويحضروه اليه فجاءوه ليلا من اعلى الدار واسفلها وازعجوه وكان نايما فخرج الى الباب فوجد مظفر الدين بن زين الدين مع بنى الغراف فقالوا له ان المولى عز الدين قد امرنا بالقبض عليك فقال لهم السمع والطاعة فشانكم وما امرتم به فاركبوه وحملوه والرجال محيطة به وفتحوا بالليل باب القلعة واعتقلوه بها غير مضيّق عليه واحضره عز الدين ووانسه وقال لم افعل ما فعلت الا لشدّة رغبتى فيك وافتقارى الى مثلك فعرّفه ما ينطوى عليه (وان) ما نقل عنه لم يخطر ببالة فقال ان وقيعة اعدايك فيك لم تزدك عندى الا حظوة وبقى معتقلا فى القلعة اشبوعا ثم خلع عليه واطلقه وزاد فى اقطاعه الاحتربن واقام عز الدين حتى انقضت مدة الشتاء ثم تزوّج ام الملك الصالح فى خامس شوال من السنة ثم سيّرها الى الموصل واستولى على جميع الخزاين التى كانت لنور الدين وولده بقلعة حلب وكان فيها من السلاح والزّرد والقسىّ والخود والبركسطوانات والنشّاب والالات ولم يترك فيها الا شيا يسيرا من السلاح العتيق وسيّر

Digitized by Google

ذلك كله الى الرقة وترك فى قلعة حلب ولده نور الدين محمودا طفلا صغيرا وردّ امره الى الوالى بالقلعة شهاب الدين اسحق وسلّم البلد والعسكر الى مظفر الدين بن زين الدين وسار الى الرقة فى سادس عشر شوال فاقام بها فصل الربيع وراسل اخاه عماد الدين فى المقايضة بسنجار ليتوفر على حفظ بلاده ويضم بعضها الى بعض ولعلمه انه يحتاج الى الاقامة بالشام لتعلق اطماع الملك الناصر بحلب وقدم عليه اخوه واستقرت المقايضة على ذلك وتحالفا على ان يكون حلب واعمالها لعماد الدين وسنجار واعمالها لعز الدين وان كل واحد منهما ينجد صاحبه وان يكون طمان مع عماد الدين فسير طمان وصعد الى قلعة حلب وكان معهم علامة من عز الدين فتسلمها وسير عز الدين من تسلم سنجار وفى حال طلوع طمان ونقل الوالى متاعه طمع مظفر الدين بن زين الدين بان يملك القلعة ووافقه جماعة من الحلبيين كانوا بقربه فى الدار المعروفة بشمس الدين على بن الداية وجماعة من الاجناد وليس هو زرديّة تحت قباه والبس جماعة من اصحابه الزرد تحت الثياب ومع كل واحد منهم سيف وارسل الى شهاب الدين وقال له انه وصلنى كتاب من اتابك عز الدين وامرنى ان اطلع فى جماعة اليك فامره بالصعود وكان جمال الدين شادبخت فى حوش القلعة الشرقى الذى هدمه الملك العادل وكان بين الجسرين الذين جدّدهما السلطان الملك الظاهر رحمه الله وعمل مكان ذلك الحوش بغله فراى الجند مجتمعين تحت القلعة فسير شادبخت واحضر بوابا كان للقلعة يقال له على بن منيفة وكان جلدا يقظا وامره بالاحتراز فلما اراد ان يدخل من باب القلعة تقدم اليه وقال له لا تدخل الا انت وحدك وكان فى ركابه جماعة فمنعوهم فلم

يتمّر له ما اراد وعاد ابن زين الدين الى داره وقيل ان ابن مقبل الاسباسلار قال له انت تصعد الى القلعة فما هذا النزد عليك فعاد وجعل يعتذر عمّا شاع فى النـاس من فعله وكتب شهـاب الدين الوالى وجمال الدين شادبخت الى عز الدين كتـابا بخطّ حسين ابن بلدك امام المقـام واخذ تحته خـطوط الاجنـاد والنقيب والاسباسلار فلم يمكن عز الدين مكاشفته فى ذلك لقرب الملك النـاصر من البلاد وبعث مظفر الدين الى عز الدين يعتذر ويقول ان الاسماعيلية اوعدونى القتل وما امكننى الا الاحتراز بالسلاح انا ومن معى وانكر لحفظة بالقلعة ذلك علىّ ولم يكن ذلك لامر غير ما ذكرته فلم يقـاتله على ذلك واما طمـان فانه قبض على الجماعة الذين كانوا معه وحبسهم فى القلعة واطّلع على ما كانوا اضمروه واطلقهم فى اليوم الثـانى وستر هذا الامرَ ثم وصل قطب الدين بن عماد الدين الى حلب ثم ورد ابوه عماد الدين فوصل باهله وماله واجناده وزوجته بنت نور الدين ووصل على البرّية من جهة الاحصّ والتقاه الاكابر من الحلبيين وصعد الى قلعة حلب فى ثالث عشر المحرم من سنة ثمـان وسبعين وخمس مائة وقيل فى مستهلّه وولى القلعة عبد الصمد بن الحكاك الموصلى والعسكر والخزاين والنظر فى احوال القلعة (الى مجاهد الدين بزغش وانزل شـادبخت من القلعة) والقضاء والخطـابة والرياسة على ما كان عليه فى ايام اخيه وابن عمه وولى الوزارة بها الدين ابا الفَتْح نصر بن محمد بن القيسرانى اخا موفق الدين خالد وزير نور الدين واستمرّ الشيعة فى ايامه وايام اخيه على قاعدتهم التى اقرّهم عليها الملك الصالح من اقامة شعارهم بالشرقيّة بالمسجد الجامع وابقى سرخك فى حارم على ما كان عليه وحكم شادبخت فى عزاز وقلعتها وهو وكيل

Digitized by Google

عن ابنة نور الدين التى اطلقها الملك الناصر لها ومصالح الفرنج وجرى فى الاحسان حلب على قاعدة عمه وابن عمه واخيه ولما بلغ الملك الناصر حديث حلب واخذ عماد الدين اياها قال اخذنا والله حلب فقيل له كيف قلت فى عز الدين لما اخذها خرجت حلب عن ايدينا وقلت حين اخذها عماد الدين اخذنا حلب فقال لان عز الدين ملك صاحب رجال ومال وعماد الدين لا مال ولا رجال وخرج الملك الناصر من مصر فى خامس المحرم من هذه السنة وخرج الناس يودّعونه ويسيرون معه ويتاسفون على فراقه وكان معه معلم لبعض اولاده فالتفت الى بعض الحاضرين وانشد

تمتّعْ من شَميم عَرَار نَجْد فما بعد العَشيّة من عَرَار

فانقبض السلطان وتطيّر فقدّر انه لم يعد الى مصر الى ان مات مع طول مدته واتساع ملكه فى غيرها وسار على ايلة واغار على بلاد الفرنج فى طريقه ووصل دمشق فى صفر ثم خرج منها الى ناحية الغور فاغار على ناحية طبرية وبيسان وعاد الى دمشق ثم خرج الى بيروت ونازلها واجتمع الفرنج فرحّلوه عنها فدخل الى دمشق وبلغه ان المواصلة كاتبوا الفرنج على قتاله فجعل ذلك حجة عليهم وسار حتى نزل على حلب فى ثامن عشر من جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخمس مائة ونزل على عين اشمونيث وامتدّ عسكره حولها شرقا واقام ثلثة ايام فقال له عماد الدين امض الى سنجار وخُذْها وادفعْها الىّ وانا اعطيك حلب وكان عماد الدين قد ندم على مقايضة اخيه بحلب وسنجار حيث وصل ووجد خزاينها صفرا من المال وقلعتها خالية من العدد والسلاح والآلات وانه يجاور مثل الملك الناصر فيها فعند ذلك سار الملك الناصر الى عبر البيرة وكان صاحبها شهاب الدين بن ارتق قد صار

فى طاعته فعبر اليه مظفر الدين بن زين الدين الى النـاحية الشامية وحران انذاك فى يده كان اقطعه اياها عز الدين صاحب الموصل وحصلت بينه وبينه وحشة من الوقت الذى عزم فيه على اخذ قلعة حلب فكانت رسله تتردد الى الملك النـاصر يطمعه فى البلاد ويحثّه على الوصول وعـاد ابن زين الدين معه حتى عبر الفرات فى جسر البيرة وكان عز الدين قد وصل بعساكر الموصل الى دارا ليمنع الملك النـاصر من حلب فلمـا عبر الفرات عاد الى الموصل وعاد الملك النـاصر فاخذ الرهـا من ابن الزعفرانى وسلّمها الى ابن زين الدين واخذ الرقة من ابن حسان ودفعهـا الى ابن الزعفرانى وكـاتب ملوك الشرق فاطـاعوه وقصد نصيبين فاخذها وسار الى الموصل وفيهـا عسكر قوىّ فقوتل قتالا شديدا ولم يظفر منها بطايل فرحل عنها الى سنجـار فانفذ مجـاهد الدين اليهـا عسكرا فمنعه الملك النـاصر من الوصول وحـاصر سنجـار فسلّمهـا اليه امير من الاكراد الزرزاريّة وكان فى برج من ابراجهـا فسلم اليه تلك الناحية وصارت البـاشورة معه فضعفت نفس واليهـا امير اميران اخى عز الدين فسلمهـا بالامان فى ثـانى شهر رمضـان من السنة وقرّر الملك النـاصر امورها وعاد الى حرّان ولما قصد الملك النـاصر البلاد الشرقية راى عماد الدين ان يخرّب المعـاقل المطيفة ببلد حلب فشنّ الغارات على شـاطى الفرات وهدم حصن بالس وحصر قليعة بادر ففتحها ثم هدمها بعد ذلك واغـار على قرى الشطّ فاخربها واستاق مواشيها واحرق جسر قلعة جعبر ثم وصل الى منبج وقاتلها واغار على بلدها ووصلت الغـارة الى قلعة نجم وعبر الفرات فاغار على سروج ثم عـاد الى حلب ثم خرج وهدم حصن الكرزين وخرب حصن بزاعـا وقلعة عزاز فى جمدى الاخرة

Digitized by Google

وخرّب حصن كفرلاثا بعد اخذه من صاحبه بكمش وكان قد استامن الى الملك الناصر وضاق الحال عليه فشرع فى قطع جامكيّة اجناد من القلعة وقتّر على نفسه فى النفقات واما الملك الناصر فرحل من حرّان فنزل بحزرم تحت قلعة ماردين فلم ير له فيها طمعا فسار الى امد فى ذى الحجة وكان قد وعد نور الدين محمد بن قرا ارسلان باخذها من ابن بيسان وتسليمها اليه وحلف له على ذلك فتسلمها فى العشر الاول من المحرم من سنة تسع وسبعين وخمس ماية وكان فيها من المال شى عظيم فسلم ذلك كله مع البلد الى نور الدين وقيل له فى اخذ الاموال وتسليم البلد فقال ما كنت لاعطيه الاصل وابخل بالفرع ثم ان الملك الناصر عبر الى الشام فمرّ بتل خالد فحصرها فسلمها اهلها بالامان فى المحرم ثم سار منها الى عين تاب وبها ناصر الدين محمد اخو الشيخ اسمعيل الخزندار فدخل فى طاعته فابقاها عليه ولما علم عماد الدين ذلك وتحقّق قصده لحلب اخذ رهاين الحلبيين واصعد جماعة من اولادهم واقاربهم خوفا من تسليم البلد وقسم الابراج والابواب على جماعة من الامراء وكان الامراء اليارقيّة بها فى شوكتهم وجاء الملك الناصر ونزل على حلب فى السادس والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين وخمس ماية وامتدّ عسكره من بابلى الى النهر ممتدّا الى باسلين ونزل هو على الخناقيّة وقاتل عسكر حلب قتالا شديدا فى ذلك اليوم واسر حسام الدين محمود ابن الخشلو بانقرب من بانقوسا وهو الذى تولى شحنكيّة حلب فيما بعد وهجم تاج الملوك بورى بن ايّوب اخو الملك الناصر على عسكر حلب فضرب بنشاب زنبورك فاصاب ركبته فوقع فى الاكحل فبقى اياما ومات بعد فتح حلب ودُفن بتربة شهاب

الدين الحارمي بالمقام ثم نقل الى دمشق وجدّ الملك الناصر بسبب اخيه على محاصرة حلب اياما فاجتمع اليه الاجناد من العسكر والرجالة وطلبوا منه قرارهم فمطلهم فقالوا قد ذهبت اخبازنا ونحتاج لغلاء الاسعار الى ما لا بد منه وشحّ بماله فقال لهم انتم تعلموا حالى وقلة مالى وانى تسلّمت حلب صفرا من الاموال وضياعهم فى اقطاعكم فقال له بعضهم من يريد حلب يحتاج الى ان يخرج الاموال ولو باع حُلى نسايه فاحضر اوانى من الذهب والفضة وغيرها وباع ذلك وانفقه فيهم وكان الحلبيون يخرجون على جارى عادتهم ويقاتلون اشدّ قتال بغير جامكية ولا قرار نخوة على البلد ومحبة لملكهم فافكر عماد الدين وراى انه لا قبل له بالملك الناصر وان ماله ينفد ولا يُفيده شيا فخلا ليلة بطمان وقال له ما عندك فى امرنا هذا الملك الناصر قد نزل محاصرا لنا وهو ملك قوى ذو مال والظاهر انه يطيل الحصار وتعلم اننى اخذتُ حلب خالية من الخزاين والجند فيطالبونني وليس لى من المال ما يكفيني لصابرته ولا ادرى عاقبة هذا الامر الى ما ينتهى فاحسّ طمان عند ذلك بما قد حصل فى نفسه فقال له انا اذكر لك ما عندى على شريطة الكتمان والاحتياط بالمواثيق والايمان على ان لا يطّلع احد ما يدور بيننا فان هولآء الامراء ان اطّلعوا على شيء مما نحن فيه افسدوه وانعكس الغرض فتحالفا على كتمان ذلك فقال له طمان ارى من الراى فى حلب ان تُسلّمها الى الملك الناصر بجاهها وحرمتها قبل ان تهتك حرمتها ويضعف امرها وتفنى الاموال وتضجر الرجال ويستغلّ بلدها فيتقوّى هو وعسكره به ونحن لا نزداد الا ضعفا والآن فنحن عندنا قوة ونأخذ منه ما نريد من الاموال والبلاد ونستريح من الاجناد ولحاحهم فى الطلب ثم قد اصبح ملك

عظيما وهو صاحب مصر واكثر الشام وملوك الشرق قد اطاعوه ومعظم الجزيرة فى يده فقال له والله هذا الذى قلته كله رأى وهو الذى وقع لى فاخرج اليه وتحدث معه على ان يعطينى الخابور وسنجار واى شى قدرت على ان تزداده فافعل واطلب الرقة لنفسك ثم ان طمان كتم ذلك الامر وباكر القتال واظهر ان بداره واصطبله بالحاضر خشيا عظيما وانه يريد نقصها كيلا يحرقها العسكر فكان يبيت كل ليلة فى داره خارج المدينة ويجتمع بالسلطان الملك الناصر خاليًا ويُرتّب الامور معه ويجى الى عماد الدين ويُقرر الحال معه وينْزل ويَصْعَد الى القلعة من برج المنشار وكان عند باب الجبل الآن متصلًا بالمنشار الى ان قرر مع الملك الناصر ان ياخذ حلب وعملها ولا ياخذ شيا من اموالها وذخايرها وجميع ما فيها من الالات والسلاح وان يُعطى عماد الدين عوضًا عنها سنجار والخابور ونصيبين وسروج وان يكون لطمان الرقة ويكون مع عماد الدين وشرط عليه ان يكون الخطابة والقضاء للحنيفة بحلب فى بنى العديم على ما هى عليه كما كان فى دولة الملك الصالح وان لا ينقل الى الشافعيّة هذا كله يتقرّر والقتال فى كل يوم بين العسكرين على حاله وليس عند الطايفتين علم بما يجرى ويخرج من الحلبيين فى كل يوم عشرة الف مقاتل او اكثر يقاتلون اشد قتال ولم يعلم احد من الامراء ولا من اهل البلد حتى صعدت اعلام الملك الناصر على القلعة بعد ان توقّف كلّ واحد من الملكين من صاحبه بالايمان فاسقط فى ايدى (اهل) حلب والامراء من البارقية وغيرهم وخاف البارقية على اخبازهم والحلبيون على انفسهم لما تكرر منهم من قتال الملك الناصر مرة بعد اخرى فى ايام الملك الصالح وصرّح العوام

تسبّه وحمل رجل من الحلبيين يقال له سيف بن المؤذن اجّانة الغسّال وصار بها الى تحت الطيّارة بالقلعة وعماد الدين جالس بها يشير اليه ان يغسل فيها كالمخانيث وناداى اليه يا عماد الدين نحن كنّا نقاتل بلا جامكيّة ولا جراية فما حملك على ان فعلت ما فعلت وقيل ان بعضهم رماه بالنُشّاب فوقع فى وسط الطيارة وعمل عوامّ حلب اشعارا عامية كانوا يُغَنُّون بها وَيَدُقُّون على طبيلاتهم بها منها

احباب قلبى لا تلُومُونى هذا عماد الدين مجنون
قايض بسنجار لقلعة حلب وزادهُ المولى نصيبين

ودقّ اخر على طبله وقال مُشيرًا الى عماد الدين

وبعت بسنجار قلعة حلب عَدمتُك من بايع مُشْترى
خَريتَ على حلب خَريةً نسخْت بها خريةَ الأشعرى

وصَعدَ اليه صفى الدين ريسُ البلد ووبّخه على ما فعل وهو فى قلعة حلب لم يخرج منها بعد فقال له عماد الدين فما فَات فاستهْزأ به وانفذ عسكر حلب واهلها الى السلطان الملك الناصر عز الدين جورديك وزين الدين بلك فاستخلفوه للعسكر ولاهل البلد فى سابع عشر صفر من سنة تسع وسبعين وخمس مايةٍ وخرجت العساكر ومقدّموا حلب اليه الى الميدان الاخضر وخلع عليهم وطيّب قلوبهم ولما استقرّ امر الصلح حضر الملك الناصر صلاح الدين عند اخيه تاج الملوك بالخناقية يعودهُ وقال له هذه حلب قد اخذناها وهى لك فقال لو كان وأنا حى ووالله لقد اخذتها غالية حَيثُ تفقّد مثلى فبكى الملك الناصر والحاضرون واقام عماد الدين بالقلعة يقضى اشغاله وينْقُل اقمشته وخزاينه والسلطان الملك الناصر مقيم بالميدان الاخضر الى يوم الخميس

Digitized by Google

ثالث وعشرين من صفر فنزل عماد الدين من القلعة ورتّب فيها طُمان مُقيمًا بها الى ان يتسلم نُوّاب عماد الدين ما اعتاض به عن حلب واستنابهُ فى بيْع جميع ما كان فى قلعة حلب حتى الاغلاق والخَوابى واشترى الملك الناصر منها شيًا كثيرًا ونزل عماد الدين فى ذلك اليوم الى السلطان الملك الناصر وعمل له السلطان وليمةً واحتفل وقدّم لعماد الدين اشياء فاخرة من الخيل والعُدَد والمتاع الفاجر وهم فى ذلك اذ جاء بعض اصحابه واسرّ اليه بموت اخيه تاج الملوك فلم يُظهر جَزَعًا ولا قلقًا وكتم ذلك عن عماد الدين الى ان انقضى المجلس وامرهم بتجهيزه فلما انقضى امر الدّعوة وعلم عماد الدين بعد ذلك عزاهُ عن اخيه وسار السلطان الملك الناصر معه مُشيّعًا فى ذلك اليوم فسار حتى نزل مرج فرا حصار فنزل به والسلطان فى خيمته الى ان وصل الى عماد الدين رُسل اصحابه يخبرونه بانهم تسلّموا سنجار والمواضع التى تقرّرت له معها فرفعت اعلام الملك الناصر عند ذلك على القلعة وصعد اليها فى يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وسبعين وخمس ماية وامتنع سَرخك والى حارم من تسليمها الى السلطان الملك الناصر فبذل له ما يحبّ من الاقطاع فاشتطّ فى الطلب وراسل الفرنج ليستنجد بهم فسمع بعض الاجناد بقلعة حارم ذلك فخافوا ان يُسلّمها الى الفرنج فوثبوا عليه وحبسوه وارسلوا الى السلطان يعلمونه بذلك ويطلبون منه الامان والانعام فاجابهم الى ذلك وتسلّمها واقر عين تاب بيد صاحبها وسلم تل خالد الى بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر وكان من كبار اليارقية واقطع عزاز الامير علم الدين سليمن بن حيدر وولى الملك الناصر قلعة حلب سيف الدين باركج الاسرى وولى شحنكيّة حلب حُسام

الدين تُمَيرك بن يونس وولى ديوان حلب ناصح الدين بن العميد الدمشقى وابقى الرئيس صفى الدين طارق بن ابى غانم بن الطبرية فى منصبه على حاله وزاد اقطاعه وكان الفقيه عيسى كثير التعصّب فما زال به حتى نقل الخطابة عن الحنفيّة الى الشافعيّة وعزل عنها عمّى ابو المعالى وولّيها ابو البركات سعيد بن هاشم وفعل فى القضآء كذلك فسيّر الى القاضى محيى الدين محمد بن زكى الدين هلى الى دمشق بسفارة القاضى الفاضل فاحضر الى حلب وولّى قضآءها وعُزل والدى عن القضآء وامتدحه محيى الدين بن الزكى بقصيدة بائية قال فيها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صَفَرٍ مُبشّر بفتوح القُدس فى رَجَب

فاتفق من احسن الاتفاقات واعجبها فتح القُدس فى شهر رجب من سنة ثلث وثمانين وخمس مائة واقام محيى الدين فى القضآء بحلب مدة ثم استناب القاضى زين الدين ابا البيان بنانن البانياسى فى قضآء حلب وسار الى بلده دمشق ثم ان السلطان الملك الناصر اقام بحلب ورحل منها فى الثانى والعشرين من ربيع الاخر من سنة تسع وسبعين وخمسمائة وجعل فيها ولده الملك الظاهر غازى وكان صبيًّا وجعل تدبير امره الى سيف الدين بازكج وسار الى دمشق ثم خرج الى الغزاة فى جمدى الاخرة وسار الى بيسان وقد هرب اهلها فخربها ونهبها وخرب حصنها ثم سار الى عفربلا فخرّبها وجرد قطعة من العسكر فخربوا الناصرة والفولة وما حولها من الضياع وجآء الفرنج فنزلوا عين الجالوت ودار المسلمون بهم وبثوا السرايا فى ديارهم للغارة والنهب ووقع جوردبك وجاولى الاسدى وجماعة من النورية على عسكر الكرك والشوبك سايرين فى نجدة الفرنج فقتلوا منهم مقتلة عظيمة واسروا

Digitized by Google

مائة نفر وعادوا وجرى للمسلمين مع الفرنج وقعات ولم يتجاسروا على الخروج للمصاف وعاد السلطان الى الطور فى سابع عشر جمادى الاخرة فنزل تحت الجبل مفترقا رحيلهم ليجد فرصة فاصبحوا ورحلوا راجعين على اعقابهم ورحل نحوهم وناوشهم العسكر الاسلامى فلم يخرجوا اليهم والمسلمون حولهم حتى نزلوا القُولة راجعين وفرغت ازواد المسلمين فعادوا الى دمشق ودخل السلطان دمشق فى رابع وعشرين من جمدى الآخرة ثم عزم على غزو الكرك فخرج اليها فى رجب وكتب الى اخيه الملك العادل وامره ان يلتقيه الى الكرك وسار السلطان الى الكرك وحاصرها ونهب اعمالها وهجم ربضها فى رابع شعبان وهدم سورها بالمنجنيقات واعجزه طمّ خندقها ووصلت الفرنج لنجدتها فلما اجتمعوا بالخليل رحل عنها ونزل بازايها ووصل اخوه الملك العادل من مصر وعقد لابن اخيه تقى الدين عمر على ولايتها فسار اليها فى نصف شعبان وعاد السلطان الملك الناصر الى دمشق والملك العادل اخوه معه فعقد له على ولاية حلب وسار اليها فى ثانى شهر رمضان فوصلها وصعد قلعتها فى يوم الجمعة ثانى وعشرين من شهر رمضان وخرج السلطان الملك الظاهر منها ومعه يازكج فوصل الى والده فى شوال ويقال ان الملك العادل دفع الى السلطان لاجل حلب ثلثماية الف دينار مصرية وقيل دون ذلك وكان السلطان محتاجًا اليها لاجل الغزاة فلذلك سلّم اليه حلب واخذها من ولده ولما دخلها الملك العادل ولى بقلعتها صارم الدين بزغش وولى الديوان والاقطاع والجند وامر الاموال وشحنكية البلد شجاع الدين محمد بن بزغش البصراوى واستكتب الصنيعة بن النحال وكان نصرانيًا فاسلم على يديه وولى وقوف الجامع فخر الدين احمد بن عبد الله بن القصيرى وامره

بتجديد المساجد الدائرة بحلب والقيام بمصالحها وتوفير اوقافها عليها وان لا يتعرّض بوقف المسجد الجامع بل يُوفر وقفه على مَصالحه ولا يرفع الى الزردخاناه الاّ ما فَضَل عن ذلك كله وجدّد في ايامه مساجد متعددة كانت قد تهدّمت ووقع في ايامه وقعة بين الحنفية والشافعية وصار بينهم جراحٌ فصنع لهم الملك العادل دعوةً في الميدان الاخضر واصلح بين الفريقين وخلع على الاكابر من الفقهآء والمدرّسين وهدم الحوش القبلي الشرقي الذي كان للقلعة وهو ما بين الجسرَيْن تحت المركز ورأى ان يُسقفه فسقفه السلطان الملك الظاهر بعده وكتب عليه اسمه بالسواد الى ان غاب في ايام ابنه الملك العزيز فجُدّد وزالت الكتابة وبقي بعضها ووصل رسول الخليفة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسمعيل الى السلطان الملك الناصر في الاصلاح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل ورد معه من الموصل القاضي محيي الدين ابو حامد بن الشهرزوري الذي كان قاضي حلب ثم تولى قضآء الموصل والقاضي بهاء الدين ابو المحاسن بن شدّاد الذي صار قاضي عسكر السلطان الملك الناصر وولي قضاء حلب في ايام ابنه الملك الظاهر ولم يتفق الصلح بينهما وحضرني حكاية جرت لشيخ الشيوخ مع محيي الدين في هذه السفرة وذلك ان شيخ الشيوخ كان قد وصل الى السلطان الملك الناصر وهو محاصر للموصل ليُصلح بينه وبين عز الدين في المحاصرة الاولى فلم يتفق الصلح واتهم اهل الموصل شيخ الشيوخ بالميل مع الملك الناصر فعمل محيي الدين (فيه) ابياتاً منها

بُعثت رسولاً ام بعثت مُحرضًا على القتْل تستَعجلي القتالَ وتستحثي

وقال فيها مخاطبًا للامام الناصر

فلا تغترر منه بفَضْل تنمس فما هكذا كان الجُنيد ولا الشبْلي

Digitized by Google

فبلغت الابيات شيخ الشيوخ فلما اجتمعا فى هذه السفرة وتباسطا قال له شيخ الشيوخ كيف تلك الابيات التى عملتها فى غالطه عنها فاقسم عليه بالله ان ينشده اياها فذكرها له حتى انشده البيت الذى ذكرناه اولا فقال والله لقد ظلمتنى واتنى والله اجتهدت فى الاصلاح فما اتفق فانشده تمامها حتى بلغ الى قوله فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلى فقال والله لقد صدقت فما هكذا كان الجنيد ولا الشبلى ادور على ابواب الملوك من باب هذا الى باب هذا ثم ان الرسل ساروا عن غير زبدة وتوجه الملك العادل من حلب فى ذى الحجة وعيد عند اخيه بدمشق ثم عاد الى حلب واهتم السلطان الملك الناصر فى سنة ثمانين وخمس مائة لغزاة الكرك فوصل اليه نور الدين بن قرا ارسلان واجتاز بحلب فاكرمه الملك العادل واطلعه الى قلعتها فى صفر ثم رحل معه الى دمشق فخرج السلطان والتقاه على جسر الجسر بالقاع ثم تقدم الى دمشق ولحقاه وتأهب للغزاة وخرج الى الكرك واستحضر العساكر المصرية فوصل تقى الدين ابن اخيه ومعه بنت الملك العادل وخزاينه فسيرهم الى حلب ثم نازل الكرك واخذت العساكر بها وهجموا الربض وبينه وبين القلعة خندق وهما جميعا على وسط جبل وسدوا اكثر الخندق وقاربوا فتح الحصن وكانت للفرنس ارناط فكاتب من فيها الفرنج فوصلوا فى جموعهم الى موضع يعرف بالوالة فسير الملك الناصر الاثقال ورحل بعد ان هدم الحصن بالمنجنيقات ورحل عنها فى جمادى الاخرة وامر بعض العسكر فدخلوا الى بلاد الفرنج فهجموا انابلس ونهبوها وخربوها واستنقذوا منها اسرى من المسلمين ففعلوا فى سمسطيه وحينين مثل ذلك وعادوا ودخلوا دمشق مع السلطان ووصل اليه شيخ الشيوخ

Digitized by Google

بالخلع من الخليفة الناصر لهُ ولاخيه الملك العادل ولابن عمه ناصر الدين فلبسوها ثم خلع السلطان بعد ايام خلعته الواردة من الخليفة على نور الدين بن قرا ارسلان وورد اليه رسول مظفر الدين ابن زين الدين يخبره ان عسكر الموصل وعسكر قرد نزلوا على اربل وانهم نهبوا واخربوا وانه انتصر عليهم ويشير عليه بقصد الموصل ويقوى طمعه ويبذل له اذا سار اليها خمسين الف دينار فعند ذلك غادر الفرنج مدة ورحل من دمشق من ذى القعدة من سنة ثمانين واقام بها الى ان خرجت السنة وسار منها الى حرّان والتقاه مظفر الدين بالبيرة فى المحرم سنة احدى وثمانين وعاد معه الى حرّان وطالبه بما بذل له من المال فانكر ذلك فاحضر رسوله النعلم بن ماهان فقابله على ذلك فانكر فقبض عليه ووكل به ثم اخذ منه مدينتى حران والرُها واقام فى الاعتقال الى مستهل شهر ربيع الاول ثم اطلقه خوفًا من انحراف الناس عنه لانهم علموا انه الذى ملكه البلاد الجزرية واعاد عليه حرّان ووعده باعادة الرها اذا عاد من سفرته فاعادها عليه وسار الملك الناصر الى الموصل فوصل بلد فنزلت اليه والدة عز الدين ومعها ابنة نور الدين وغيرها من نساء بنى اتابك يطلبن منه المصالحة والموافقة فردهن خائبات ظنًا منه ان عز الدين ارسلهنّ عجزًا عن حفظ الموصل واعتذر باعذار ندم عليها بعد ذلك ورحل حتى صار بينه وبين الموصل مقدار فرسخ فكان يجرى القتال بين العسكريين وبذل اهل الموصل نفوسهم فى القتال لردّه النساء وندم السلطان على ردّهن وافتتح تل عفر فاعطاها عماد الدين صاحب سنجار واقام على حصار الموصل شهرين ثم رحل عنها وجاء الخبر بموت شاه ارمن وكاتبه جماعة من اهل خلاط فترك الموصل طمعًا فى خلاط

فاصطلح اهل خلاط مع البهلوان صاحب اذربيجان فنزل السلطان على ميّافارقين وكان صاحبها قطب الدين ايلغازى بن التى بن تمرتاش وملك بعده حسام الدين بولق ارسلان وهو طفل فطمع فى اخذها ونازلها فتسلّمها من واليها وزوج بعض بنيه بينت الخاتون بنت قرا ارسلان ثم عاد الى الموصل عند اياسه من خلاط فوصل الى كفرزمّار فى شعبان من سنة احدى وثمانين فاقام بها مدة والرسل تتردد بينه وبين عز الدين فمرض السلطان بكفرزمّار فسار عايدًا الى حرّان واتبعه عز الدين بالقاضى بها الدين بن شدّاد وبهآء الدين الربعى رسولين اليه فى موافقته على الخطبة والسكة وان يكون معه عسكر من جهته وان يسلّم اليه شهرزور واعمالها وما وراء الزاب واشتدّ مرض السلطان بحرّان فى شوال وايس منه وارجف بموته ووصل اليه الملك العادل من حلب ومعه اطباؤها واستدعى المقدمين من الامرآء من البلاد فوصلوا اليه وعزم الملك العادل على استخلاف الناس لنفسه وسار ناصر الدين صاحب حمص طمعًا فى ملك الشام وقيل انه اجتاز بحلب ففرق على احداثها مالًا وسار الى حمص وجرى من تقى الدين بمصر حركات من يريد ان يستبدّ بالملك وتماثل السلطان وبلغه ذلك كله وارتب فراه الناس وفرحوا وابتنى دارًا ظاهر حران فجلس فيها حين عُوفى فسميت دار العافية ولما عُوفى ردّ على مظفر الدين الرها واعطاه سنجقًا واحضر رسولى الموصل وحلف لهما على ما تقرّر فى يوم عرفة وبلغه موت ابن عمه ناصر الدين صاحب حمص ورحل عن حرّان الى حلب وصعد قلعتها يوم الاحد رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وخمس ماية واقام بها اربعة ايام ثم رحل الى دمشق فلقيه اسد الدين شيركوه بن صاحب حمص فاعطاه حمص وسار

الى دمشق وسير الى الملك العادل وطلبه اليه الى دمشق فخرج من حلب جريدةً ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول من سنة اثنتين فوصل اليه الى دمشق وجرت بينهما احاديث ومراجعات استقرّت على ان الملك العادل يطلع الى مصر ومعه الملك العزيز ويكون اتابكهُ ويسلم حلب الى الملك الظاهر غازى وينزل الافضل الى دمشق من مصر ونزل تقى الدين ايضا منها وكان الذى حمله على اخراج الملك العادل من حلب ان علم الدين سليمان بن حيدر كان بينه وبين الملك الناصر محبة قديمة قبل الملك ومعاشرة وانبساط وكان الملك العادل وهو بحلب لا يوفيه ما يجب له ويقدّم عليه غيره فلما عُوفى الملك الناصر سايره يومًا سليمان وجرى حديث مرضه وكان قد اوصى لكل واحد من اولاده بشى من البلاد فقال له سليمان بن حيدر بأىّ راى كنت تظنّ ان وصيّتك تمضى كانك كنت خارجا الى الصيد وتَعُود فلا يُخالفونك اما تستحيى ان يكون الطاير اهدى منك الى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال اذا اراد الطاير ان يعمل عُشًّا لفراخه قصد اعالى الشجرة يحمى فراخه وانت سلمت الحصون الى اهلك وجعلتَ اولادك على الارض هذه حلب وهى امّ البلاد بيد اخيك وحماة بيد تقى الدين (وحمص بيد ابن اسد الدين وابنك الافضل مع تقى الدين) بمصر يخرجه متى شاء وابنك الاخر مع اخيك فى خيمة يفعل به ما اراد فقال له صدقت واكتُم هذا الامر ثم اخذ حلب من اخيه واعطاها ابنه الملك الظاهر واعطى الملك العادل بعد ذلك حرّان والرُها وميافارقين ليخرجه من الشام ويتوفّر الشام على اولاده فكان ما كان واخرج تقى الدين من مصر فسبق عليه ذلك وامتنع من القدوم ثم خاف فقدم عليه وسير الملك العادل

الصنيعة لاحضار اهله من حلب وسار الملك الظاهر قدّس الله روحه
الى حلب وسير فى خدمته شُجاع الدين عيسى بن بلاشوا وولّاه
قلعة حلب واوصاه بتربية الملك الظاهر واخيه الملك الزاهر وحُسام
الدين بشَارة صاحب بانياس وولاه المدينة وجعل الديوان بينهما
وجعل قرار الملك الظاهر فى السنة ثمانية واربعين الف دينار بيضا
فى كل شهر اربعة الف دينار وكل يوم قبا وكمّة وعلسيق دوابه
من الاعواء وخبزه من الاعرآء واستمرّت هذه الوظيفة الى سنة ست
وثمانين الى رَجَب فورد كتاب الملك الناصر الى ولده الملك الظاهر
يامره ان يامر وينهى ويقطع الاقطاعات وان البلد بلده وكان
القاضى الزبدانى يكتب له فلم يُعجبه فانصرف على حال غير
محمودة وعلى ذكر علم الدين سليمان بن خندر تذكرتُ
حكاية مُستملحة عنه فاثبتُّها اخبرنى الزكى احمد بن مسعود
الموصلى المقرى قال كنتُ أؤمّ بعلم الدين سليمان بن خندر
فاتفق ان خرجتُ معه الى حارم فى سنة سبع وسبعين وخمس
ماية وجلستُ معه تحت شَجرة هناك فقال كنت ومجد الدين
ابو بكر بن الدراية والملك الناصر صلاح الدين تحت هذه
الشجرة ونور الدين اذذاك محاصر حارم وهى فى ايدى الفرنج
فقال مجد الدين كنتُ أتمنّى ان نور الدين يفتح حارم
ويُعطينى اياها فقال صلاح الدين اتمنّى على الله مصر ثم قالا لى
تمنّ انت شيًا فقلت اذا كان مجد الدين صاحب حارم وصلاح
الدين صاحب مصر ما اضيع بينهما فقالا لا بدّ من ان تمنّى شيًا
فقلت اذا كان ولا بُدّ من ذلك فاريد عمّر فقدّر الله ان نور
الدين كسر الفرنج وفتح حارم واعطاها مجد الدين واعطانى
عمّر فقال صلاح الدين اخذتُ انا مصر والله فانّنا كُنّا ثلثة وتمنّى

مجد الدين حارم واخذها وتمنّى علم الدين عمر واخذها وقد بقيتْ أُمنيّتى فقدّر الله تعالى ان فتح اسد الدين مصر ثمر آل الامر الى ان ملكها صلاح الدين وهذا من اغرب من الاتّفاقات و زوج السلطان الملك الناصر ولده الملك الظاهر فى هذه السنة بابنة اخيه غازية خاتون بنت الملك العادل ودخل بها يوم الاربعا سادس وعشرين من شهر رمضان ثم ان السلطان عزم على القصد الكرك مرة اخرى فبرز من دمشق فى النصف من محرم سنة ثلاث وثمانين وخمس مايةٍ وسيّر الى حلب يستدعى عسكرها فاعتاق عنه لاشتغاله بالفرنج بارض انطاكية وبلاد ابن لاون وذلك انه كان قد مات واوصى لابن اخيه الملك وكان الملك المظفر تقى الدين بحماة فسير اليه السلطان وامره بالدخول الى بلاد العدو فوصل الى حلب فى سابع عشرى محرم ونزل فى دار عفيف الدين بن زُريق واقام بها الى ثالث صفر وانتقل الى (دار ابى) الآن وكانت اذذاك فى ملْك الامير طُمان ثمر خرج الى حارم واقام بها الى ان صالحهم فى العشر الاواخر من شهر ربيع الاول ثمر سار حتى لحق السلطان واما السلطان فانه سار الى راس الما واجتمعت اليه العساكر الاسلامية من الموصل والشرق ومصر والشام بعشترا بعد ان اتته الاخبار ان البرنس ارناط يريد الخروج الى الحاج فاقام قريبًا من الكرك مُشْغلا خاطره ليلزم مكانه الى ان وصل الحاج وتقدم الى الكرك وبتّ سراياه فنهبوا بلدها وبلد الشوبك وخربوه وارسل الى ولده الملك الافضل فاخذ قطعة من العسكر فدخل الى بلد عكّا فاخربوا ونهبوا وخرج اليهم جمعٌ من الداويّة والاسبتاريّة فظفروا بهم وقتل منهم جماعة واسر الباقون وقتل مقدم الاسبتار وعاد السلطان الى العسكر وعرض العسكر

Digitized by Google

قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشيّة وساقة وعرف كُلًا منهم موضعه وسار على تعبية فنزل بالاقحوانة بالقرب من طبرية وكان القُمّص صاحبها قد انتمى الى السلطان فخلّف جرى بينه وبين الفرنج وارسل الفرنج اليه البطرك والقسوس والرُهبان ويهددوه بفسخ نكاح زوجته وتحريمه فاعتذر وتنصّل ورجع عن السلطان اليهم ثم ساروا كلهم بجموعهم الى صَفُورية فرحل السلطان يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر وخلّف طبرية ورآء ظهره وصعد جَبلها وتقدّم الى الفرنج فلم يخرجوا من خيمهم فنزل وامر العسكر بالنزول فلما جنّه الليل جعل فى مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل الى طبرية جريدة وقاتلها واخذها فى ساعة من نهار ونهبوا المدينة واحرقوها فلما سمع الفرنج بذلك تقدموا الى عساكر المسلمين فعاد السلطان الى عسكره والتقا الفريقان وجرى بينهما قتال وفرّق بينهما الليلُ وطمع المسلمون فيهم وباتوا يحرص بعضهم بعضًا فلما كان صباح السبت لخمس بقين من الشهر طلب كل من الفريقين موضعه وعلم المسلمون ان الاردن من ورايهم وبلاد القوم بين ايديهم فحملت العساكر الاسلامية من الجوانب وحمل القلبُ وصاحوا صَيْحة واحدة فهرب القُمص فى اوايل الامر نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجى وحده فلم يزل سقيمًا حتى مات فى رجب واحاط المسلمون بالباقين من كل جانب فانهزمت منهم طايفة فتبعها المسلمون فلم ينجُ منهم احدٌ واعتصمت الطايفة الاخرى بتل حطّين قرية عندها قبر شُعَيب عليه السلام فضايقهم المسلمون على التل واقدوا النيران حولهم فقتلهم العطشُ وضاق الامر بهم حتى استسلموا الاسر فاسر مقدموهم وهم الملك جفرى والبرنس ارناط صاحب الكرك واخو الملك وابن

الهنفرى واولاد الست وصاحب جُبَيل ومقدم الداوية ومقدم الاسبتار وامم لا يقع عليها الاحصآء حتى كان الرجل المسلم اقتاد منهم عشرين فرنجيا فى حَلْقهم حبل واسروا من المُصَاف ومن بلاد الفرنج اكثر من ثلثين الفا من الفرنج ما بين رجل وامراة وصبى وقتل من المقدمين وغيرهم خلق لا يحصى ولم يجر على الفرنج منذ خرجوا الى الساحل مثل هذه الوقعة وكان من جملة الغنيمة فى يوم المصاف صليب الصَّلبُوت وهو قطعة خشب مُغَلَّفة بالذهب مرصّعة بالجوهر يزعمون ان ربّهم صُلب عليها وضُربت فى يدَيْه المسامير احضروه معهم المصاف تبرّكا به ورفعوه على رمح عال فاما مقدم الداوية والاسبتار فاختار السلطان قَتلَهم فقُتلوا واما الملك جُفرى فانه اكرمه وجلس له فى دهليز الخيمة واستحضره واحضر معه البرنس ارناط وناول الملك جفرى شربة من جُلّاب بثلج فشرب منها وكان على اشدّ حال من العطش ثم ناول الملك بعضها لبرنس ارناط فقال السلطان للترجمان قُل للملك انت الذى سقيته والا ما سقيتهُ انا واراد بذلك عادة العرب ان الاسير اذا اكل او شرب ممن اسره أمن وكان السلطان قد نذر مرتين ان اظفره الله به ان يقتله احداهما لما اراد المسير الى مكة والمدينة وبعثرة قبر النبى صلى الله عليه وسلّم والمرة الاخرى ان السلطان كان قد هادنه وتحالفا على امن القوافل المترددة من الشام الى مصر فاجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة من الاجناد فغدر بهم الملعون واخذهم واموالهم وقال لهم قولوا لمحمد (يجى بنصركم) فبلغ ذلك السلطان وسيّر اليه وهدده ولامه وطلب منه ردّها فلم يُجب فنذر ان يقتله متى ظفر به فالتفت السلطان الى ارناط وواقعه على ما قال وقال

Digitized by Google

ها انا انتصر لمحمد ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل فسلّ السيف وضربه به فحلّ كتفه وتمم عليه من حضر واخذ ورُمي على باب الخيمة فلما رآه الملك على تلك الصورة لم يُشكّ في انه يثنّي به فاستحضره وطيّب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك انهم يقتلون الملوك ولكن هذا طغى وتجاوز حدّه فجرى ما جرى ثم ان السلطان اصبح يوم الاحد الخامس والعشرين فنزل على طبرية وتسلم قلعتها بالأمان من صاحبتها ثم رحل منها يوم الثلثا الى عكّا فنزل عليها يوم الاربعا سلخ الشهر وقاتلها يوم الخميس مستهل جمادى الأولى فاخذها واستنقذ منها اربعة الف اسير من المسلمين واخذ جميع ما فيها وتفرق العسكر وفتح بعدها قيساريّة ونابلس وحيفا وصفوريّة والناصرية والشقيف والقولة فاخذوها واستولوا على سُكّانها واموالها ورحل السلطان من عكّا الى تبنين وقاتلها وفتحها يوم الاحد ثامن عشر جمادى الاولى ثم رحل منها الى صيدا فتسلّمها يوم الاربعا العشرين منه ثم سار الى بيروت ففتحها في التاسع والعشرين منه ثم سلّمت جُبيل الى اصحابه وهو على بيروت ثم سار الى عسقلان ونازلها يوم الاحد السادس عشر من جمادى الاخرة (وتسلّمها يوم السبت سلخ جمدى الاخرة) بعد ان تسلم في طريقه مواضع كالرّملة ويُبْنَا والدّارُوم واقام على عسقلان وتسلم اصحابه غزّة وبيّت جبرين والنطرون وبيت لحم ومسجد الخليل عليه السلم وسار الى بيت المقدس فنزل عليه يوم الاحد الخامس عشر من شهر رجب من سنة ثلث وثمانين فنزل بالجانب الغربي وكان مشحونًا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة وكان فيه من المقاتلة ما يزيد على ستين الفًا غير النسّاء والصبيان ثم انتقل الى الجانب الشمالي

Digitized by Google

يوم الجمعة العشرين من شهر رجب ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى اخذ الثقب فى السور ممّا يلى وادى جهنّم فى قرنة شمالية ولما راوا ذلك وعلموا ان لا ناصر لهم وان جميع البلاد التى افتتحها السلطان صار من بقى من اهلها الى القدس خرج عند ذلك اليه ابن بارزان ملقبًا بيده ومتوسطا لامر قومه حتى استقر مع السلطان خروج الفرنج (عنها) باموالهم وعيالهم وان يؤدّوا عن كل رجل منهم عشرة دنانير وعن كل امراة خمسة دنانير وعن كل طفل لم يبلغ الحلم دينارين ومن عجز عن ذلك استرق .فبلغ الحاصل من ذلك عن من خرج منهم مائتين وستّين الف دينار صورية واسترق بعد ذلك منهم نحو ستّة عشر الفًا وكان السلطان قد رتّب فى كل باب اميرًا امينًا لاخذ ما استقر عليهم فخانوا ولم يودّوا الامانة فانه كان (فيه) على التحقيق العدة التى ذكرناها واطلق ابن بارزان ثمنية عشر الف رجل من الفقراء وزن عنهم ثلثين الف دينار وتسلم القدس فى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب واقيمت صلوة الجمعة فيه فى الجمعة التى تلى هذه وهى رابع شعبان وخطب بالناس محيى الدين بن زكى الدين وهو يومئذ قاضى حلب (وازيلت) الصلبان من قبة الصخرة ومحراب داود وازيل ما كان بالمسجد الاقصى من حوانيت الخمارين وهدمت كنايسهم والمعابد وبنيت المحاريب والمساجد واقام السلطان على القدس ثمر رحل عنه فى الخامس والعشرين من شعبان فنزل على صور بعد ان قدم عليه ولده الملك الظاهر من حلب فى ثامن عشر شهر رمضان قبل وصوله اليها وكان نزوله على صور فى ثانى عشرين شهر رمضان وضايقها وقاتلها واستدعى اسطول مصر فكانت منه

Digitized by Google

غرّة فى بعض الليالى وظنّوا انه ليس فى البحر من يخافونه فما راعهم الاّ ومراكب الفرنج من صور قد كبستهم واخذوا منهم جماعة وقتلوا جماعة فانكسر نشاط السلطان ورحل عنها فى ثانى ذى القعدة واعطا العساكر دستورا وساروا الى بلادهم واقام هو بعكّا الى ان دخلت سنة اربع وثمانين وخمس مايه وكان من بهُوبين قد ارسلوا الى السلطان وهوبصور فامنهم وسيّر من تسلمها وسار السلطان فنزل على حصن كوكب فى اوايل المحرم من السنة وكان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من دخول قوة فاخذ الفرنج غرّتهم ليلا وكبسوهم بعفربلا وقتلوا مقدّمهم سيف الدين اخا الجاولى فسار السلطان ونزل عليها بمن كان قد بقى من خواصّه بعكّا وكان ولده الملك الظاهر قد عاد عنه الى حلب وعاد اخوه الملك العادل الى مصر فحصره ثم راى انه حصن منيعٌ فرحل عنه وجعل عليه قايماز النجمى محاصرا وسار الى دمشق ثم سار عن دمشق فى النصف من ربيع الاول الى حمص فنزل على بحيرة قدس ووصل اليه عماد الدين زنكى صاحب سنجار وتلاحقت به العساكر واجتمعت عنده فنزل على تل قبالة حصن الاكراد فى مستهل ربيع الآخر وسير الى الملك الظاهر الى حلب والى الملك المظفر بان يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب فسارا حتى نزلا تيزين فى شهر ربيع الاخر وتواصلت اليه العساكر فى هذه المنزلة ثم رحل يوم الجمعة رابع جمادى الاولى على تعبية لقآء العدو ودخل الى بلاد العدو واغار على صافيثا والعُريمة وغير ذلك من ولاياتهم ووصل الى انطرسوس فى سادس جمادى الاولى فوقف قبالتها ونظم اليها وسير من ردّ الميمنة وامرها بالنزول على جانب البحر وامر الميسرة بالنزول على البحر من

الجانب الآخر ونزل فى موضعه واحدقت العساكر بها من البحر الى البحر وزحف عليها فما استتمّ نصب الخيم حتى صعد الناس السور واخذها بالسيف وغنم العسكر جميع ما بها وخرب سور البلد وسار الى جبلة فوصل اليه ولده الملك الظاهر فى اثناء الطريق بالعساكر التى كانت بتيزين ووصل الى جبلة فى ثامن عشر يوم الجمعة فما استتم نزول العسكر حتى تسلّم البلد سلمها اليه قاضيها واهلها وكانوا مسلمين تحت يد الفرنج فعملوا عليها وسلموها وبقيت القلعة ممتنعة وقاتل القلعة فسلمت بالامان يوم السبت تاسع عشر الشهر وسار عنها الى اللاذقية فنزل عليها يوم الخميس رابع عشرى جمادى الاولى ولها قلعتان فقاتلها واخذ البلد وغنموا منه غنيمة عظيمة وفرق الليل بين الناس واصبح المسلمون يوم السبت واجتهدوا فى قتال القلعتين ونقبوا فى السور مقدار ستين ذراعا فايقن الفرنج بالعطب فطلبوا الامان يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى وسلموها يوم السبت ورحل عن اللاذقية يوم الاحد فنزل على صَهيُون ونزل عليها يوم الثلثآ تاسع عشرى جمادى الاولى واستدار العسكر حولها واشتدّ القتال عليها من جميع الجوانب فضربها منجنيق ولده الملك الظاهر حتى هدم قطعة من سورها تمكن الصاعد الصعود منها وزحف عليها السلطان بكرة الجمعة ثانى جمدى الاخرة فما كان الا ساعة حتى ارتقى المسلمون على اسوار الربض فهجموه فانضم اهله الى القلعة فقاتلهم المسلمون فصاحوا الامان وسلموها على صلح القدس واقام السلطان بها حتى تسلّم عدة قلاع كالغُيْدو وقلعة الجماهرين وحصن بلاطنس ثم رحل ونزل على بُكّاس وهى قلعة حصينة من اعمال حلب على (جانبى) العاصى ولها نهر يخرج

من تحتها يوم الثلثآ سادس جمدى الاخرة على شاطى العاصى وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهى على جبل مطل على العاصى فاحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالاً شديدا بالمنجنيقات والزحف وفتحها يوم الجمعة تاسع جمادى الاخرة عنوةً واسر من كان بقى فيها وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قلعة تسمى الشُغْر قريبا منها يعبر من احديهما الى الاخرى بجسر فضربها بالمنجنيقات الى ان طلبوا الامان ثم سلمها اهلها بعد ثلثة ايام يوم الجمعة سادس عشر الشهر ثم عاد السلطان الى الثقل وسير ولده الملك الظاهر الى قلعة تسمى سُرمانية يوم السبت فقاتلها قتالاً شديدا وتسلمها يوم الجمعة ثالث عشرى الشهر المذكور واتفق له هذه الفتوحات المتتابعة كلها فى ايام الجُمَع وكذلك القدس يوم الجمعة ثم سار السلطان جريدة الى حصن برزوية وهو الذى يُضرب به المثل فى الحصانة ويحيط به اودية من سايرِ جوانبه وعلوها خمس ماية ذراع ونيف وسبعون ذراعا فتأمّله وقوّى عزمه على حصاره واستدعى الثقل وبقية العسكر يوم السبت رابع عشرى جمادى الاخرة فنزل الثقل تحت الجبل وفى بكرة الاحد صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات والات الحصار الى الجبل فاحدق بالقلعة وركب المنجنيقات عليها فقاتلها ليلاً ونهارًا ثم قسّم العسكر عليها ثلاثة اقسام يوم الثلثآ ورتّب كل قسم يقاتل شطرا من النهار بحيث لا يفتر القتال عليها وحضرت نوبة السلطان فتسلمها بنفسه وركب وصاح فى الناس فحملوا حملة الرجل الواحد وطلعوا الى الاسوار وهجموها عنده ونهبوا جميع ما فيها واسروا من كان فيها وعاد السلطان الى الثقل واحضر صاحبها ومعه من اهله سبعة عشر نَفَرًا فرقّ (له) السلطان واطلقه

مع جماعته وانفذهم الى صاحب انطاكية استمالة له فانهم كانوا من اهله ثم سار السلطان حتى نزل على درب ساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب من السنة فقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات واُخذ النقب تحت برج منها فوقع وحماه الفرنج بالرجال ووقفوا فيه يحمونه عن كل من يروم الصعود فيه وجعلوا كلما قتل منهم واحد اقاموا غيره مقامه عوضا عن السور ثم طلبوا الامان على ان ينزلوا بانفسهم وثيابهم لا غير بعد مراجعتهم انطاكية وتسلمها السلطان يوم الجمعة الثانى والعشرين من شهر رجب واعطاها علم الدين سليمان بن حيدر وسار عنها بكرة السبت ثالث عشرى الشهر ونزل فى مرج بغراس واحدق بعض العسكر ببغراس واقام يزكا على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها وقاتل البلد مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان وشرطوا استيذان انطاكية وتسلمها فى ثانى شعبان من السنة وفى ذلك اليوم عاد الى الخيم وراسله اهل انطاكية فى طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقلق عماد الدين صاحب سنجار لطلب العود الى بلاده واستقر الصلح بينه وبين صاحب انطاكية على انطاكية لا غير دون غيرها من بلاد الفرنج على ان يطلقوا جميع اسرى المسلمين الذين عندهم وان يكون ذلك الى سبعة اشهر فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد الى السلطان وطلبه ولده الملك الظاهر ان يتوجه معه الى حلب فسار معه اليها ودخلها فى حادى عشر شعبان واقام بقلعتها ثلثة ايام فى ضيافته الملك الظاهر وانعم الملك الظاهر على جماعة كثيرة من عسكره فاشفق السلطان عليه وسار من حلب فى رابع عشر شعبان فوصل دمشق قبل دخول شهر رمضان فسار فى اوايل شهر رمضان حتى

نزل صفد ونصب عليها المناجيف وداومها بالقتال حتى تسلمها بالامان فى رابع عشر شوّال وكان اصحابه الذين جعلهم على حصار الكرك لازموا الحصار هذه المدة العظيمة وصابروهم من بها من الفرنج حتى فنيت ازوادهم وذخايرهم واكلوا دوابهم فراسلوا اخا السلطان الملك العادل وكان قريبًا منهم مُنازلاً بعض القلاع فطلبوا منه الامان فامنهم وتسلمها وتسلم ايضا الشوبك وغيرها من القلاع التى تجاورها ثم سار السلطان من صفد الى كوكب فنزل على شطح الجبل واحدق العسكر بالقلعة وضايقها بالقتال حتى تمكن النقب من سورها فطلب اهلها الامان فتسلمها فى النصف من ذى القعدة وسار بعد ذلك بمدة الى البيت المقدس فدخله يوم الجمعة ثامن ذى الحجة وسار الى عسقلان مُودعًا اخاه الملك العادل وكان متوجهًا الى مصر فاخذ من اخيه عسقلان واعطاه الكرك وتوجه لتفقد البلاد الساحليّة ودخلت سنة خمس وثمانين وخمس ماية وهو بعكا وتوجه الى دمشق فدخلها مستهل صفر ثم توجه فى الثالث من شهر ربيع الاول الى مرج فلوس محاصرا لشقيف ارنون ورحل من مرج فلوس فاتى مرج عيون وهو قريب من شقيف ارنون فى سابع عشر ربيع الاول وضاق على الفرنج المجال وقلت ازوادهم فنزل ارناط صاحب الشقيف اليه وكان عظيمًا فيهم ذا راى ودهآء فاظهر الطاعة والمودة للسلطان ووعده بتسليم المكان وقال أُريد ان تُمهلنى حتّى اخلّص اولادى واهلى من الفرنج واسلّم اليك الحصن وتُعطينى موضعا اسكن فيه بدمشق واقطاعًا تقوم بى وباهلى وتمكننى الان من الاقامة بالشقيف حتى اخلّص اولادى فاجابه السلطان الى ذلك وجعل يتردد الى خدمته وكانت الهدنة بين انطاكية وبينه قد قرب وقتها وخاطره مشغول بذلك وقد سو

الى تقى الدين ان يجمع من يقارب تلك الناحية من العساكر ويكون بازاء انطاكية و بلغه ايضًا ان الفرنج قد تجمّعوا بصور فى جموع عظيمة وكان الامر قد استقر مع ارناط ان يسلّم اليه الشقيف فى جمادى الآخرة وهو مقيم بمرج عيون ينتظر الميعاد وارناط فى هذه المدّة يشترى الاقوات من سُوق المسلمين ويقوى الشقيف والسلطان يُحسن الظن به ولا يسمع فيه قول مَن يُعلمه بغدره ومكره فلما بقى من المدة ثلثة ايام وحضر عنده ارناط قال له فى معنى تسليم الشقيف فاعتذر باولاده واهله وان المركبس لم يمكنهم من المجى اليه وطلب التاخير مدة اخرى فعلم السلطان مكره فاخذه وحبسه فاجاب الى التسليم فسير مع جماعة من العسكر الى تحت الشقيف فامرهم بالتسليم فامتنعوا وطلب قسيسًا حدّثه بلسانه وعاد بما قال اليهم فاشتدّوا فى المنع فعلم (حينيذ) ان ذلك كانَ تأكيدًا مع القسيس فعاد الى السلطان وسيره الى بانياس وتقدّم الى الشقيف فحصره وضيّق عليه وجعل عليه من يحفظه الى ان سلمها من بها بعد ان عُذّب صاحبها اشدّ العذاب واشترطوا اطلاق صاحبها فى يوم الاحد خامس عشر شهر ربيع الاول من سنة ست وثمانين واما بقية الفرنج فانّ ملكهم كان وعده السلطان انه متى سَلّم عسقلان اطلقه فاتفق انه اطلقه بانطرسوس حين فتح تلك الناحية واشترط عليه ان لا يشهر فى وجهه سيفًا ابدًا فنكث واتفق مع المركيس صاحب صور وعسكرا مع جموع الفرنج على باب صور واتفق بينهم وبين المسلمين حروب وغارات كانت النكاية فيها سجالا بين الفريقين بحيث تحاجز الفريقان فى اخر تلك الايام من جمدى الاخرة من هذه السنة وسار الفرنج الى حصار عكا فنزلوا عليها فى يوم

Digitized by Google

الاربعا ثامن شهر رجب وسار السلطان فنزل عليهم بظاهر عكا ومنعهم من الاحاطة بسورها فكان نازلاً على قطعة منها يلي الشمال ومعه الباب الشمالي على الجانب الجنوبي وقد اغلق في وجوههم الباب المعروف بباب عين البقر وكان الفرنج يقومون بمحاربة المسلمين من جانب المدينة ومن جانب العسكر وجرت بينهم وبين الفرنج وقعات متعددة من اعظمها وقعة اتفقت يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان خرج الفرنج واصطفوا على تعبية القتال والملك في القلب وبين يديه الانجيل فوقف المسلمون ايضا على تعبية وتحركت ميسرة الفرنج على ميمنة المسلمين وفيها الملك المظفر فراجع عنهم وامدّه السلطان باطلاب عدة من القلب فخفّ القلب وعادت ميسرة الفرنج فطمعت فيه فحملوا على القلب فانكسر وانكسر معه معْظم الميمنة وبلغت هزيمتهم الى الفحواتَه ومنهم من دخل دمشق ووصل الفرنج الى خيم السلطان فقتلوا ذلك اليوم ابا علي الحُسين بن عبد الله بن رواحَة وكان قد مدح النبي صلى الله عليه وسلّم ووقف بإزاء قبره وانشد قصيدته وقال يا رسول الله ان لكل شاعر جايزة وقرى واني اطْلب جايزتي الشهادة فاستجاب اللهُ دُعاه وقُتل ذلك اليوم ملبس السلطان وطشت داره وثبتت ميسرة المسلمين وصاح السلطان فيمن بقي من المسلمين يال الاسلام وعادت ميسرة الفرنج الى عسكره فتكاثر النساس وراءهم وحملوا عليهم فانهزموا وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم زُهاء سبعة الف ولم يُقتل من المسلمين غير مايةٍ وخمسين نفرا ثم ان الحرب اتصلت بينهم ليلا ونهارًا وكثُر القتل بينهم واقبل الشتاء فلقي المسلمون منه شدةً وحضروا الى السلطان واشاروا عليه بالرحيل عن عكا الى الخرُّوبة لينفسح ما بين العسكرين وكان ذلك للصحيح من تلك

المواقفة وملازمة القتال حتى اوهم السلطان انّه قد ضيّقت على الفرنج مجال الهرب وحُلت بينهم وبين صور وطرابلس ولو افرجت لهم عن الطريق لَمَا وقفوا بين يديك فرحل السلطان الى الخرّوبية فاصبح الفرنج وقد انبسطوا على عكا واحاطوا بها من ساير جهاتها واتصل ما بينهم وبين صور وجات مراكبهم منها فحصرت عكا من جانب البحر وضعفت قلوب المسلمين بعكا وعادوا يقتاتون من الحواصل المذخورة بعد ان كان من الميرة المجلوبة وتوفر الفرنج على قتال اهل عكا بعد ان كانوا مشغولين بالعسكر وشرع الفرنج فى ادارة خندق على عسكرهم كاستدارتهم بعكا وجعلوه شكلا هلاليا طرفاه متصلان بالبحر واقاموا عليه سورًا مما يليهم وشرفوه بالجنويات والطوارق والتراس واتصلت الامداد اليهم من البحر بالاقوات والرجال والاسلحة حتى كان يُنقل اليهم البقول الرطبة والخضراوات من جزيرة قبرس فتُصبح عندهم فى اليوم الثانى وسيّر السلطانُ الى الخليفة وملوك الاسلام يستنفر ويستصرخ واتصلت الاخبار بوصول ملك الالمان الى القسطنطينية فى ستماية الف رجل منهم ثلثماية الف مقاتل وثلثماية الف سُوقة واتباع وصُنّاع وحكى انه كان فى عسكره خمسة وعشرون الف عجلة تنقل الاسلحة والعلوقات فاسقط فى ايدى المسلمين واستولى البأس عليهم وتعلّقت امانيهم انه ربما منعه مَن فى طريقه من الاوج ومن قلج ارسلان فلم يتفوق شى من ذلك بل سار وقطع البلاد حتى وصل الى المصيصة وارسل الله عليهم وبآء عظيما وحرًا عظيمًا ومجاعة احوجتهم الى نحر دوابهم وذبح البقر الذى يجر العجل فكان يموت فى كل يوم الوف من الرجال ويسايقون الموتان الى ما معهم من الدواب الحاملة للاثقال حتى وصلوا الى انطاكية ولم

يبق منهم الاّ دون العُشر وكان فى جملة مَن مات منهم ملكهم الذى غزا الشام فى سنة اربع واربعين وحاصر دمشق مات غريقا فى نهر بطرسُوس يقال له الفَاتر نزل وسبح فيه فغرق وقيل بانه سبح فيه وكان المآء باردًا فمرض ومات وأُخذ وُسلق فى خَل وجُمعت عظامهُ ليدفن فى البيت المقدس واوصى بالملك لابنه مكانه واتفقت الكلمة عليه فمرض بالتنيات واقام بها وسير كنداكرا على عسكره ووصل الى انطاكية فمات ذلك الكند بها فخرج البرنس الى الملك واستدعاه الى انطاكية طمعا فى انه يموت ويأخذ ماله وكان قد فرق عسكره ثلث فرق لكثرته فالفرقةُ الاولى اجتازت تحت بغراس مع الكند المذكور فوقع عليه عسكر حلب فاخذ منهم مايتى رجل ووقع ايضا على جمع عظيم خرجوا للعلوفة فقتلوا منهم جماعة كثيرة واسروا زُهآ خمس ماية نفر ولما وصل ملك الالمان الى انطاكية (واخذها) من صاحبها واودع فيها خزاينها وسار منها يوم الاربعا خامس وعشرين من شهر رجب سنة ست وثمانين وخمس ماية متوجها الى عكا وفشا فيهم الوبا حتى لم يسلم من كل عشرة واحد ولم يخرجوا من انطاكية حتى ملاوها قبورًا ووصل الملك الى طرابلس فى نحو الفى فارس لو صادفهم ماية من المسلمين لاخذوهم ووصلوا الى عكا رجّالةً ضعفا لا ينفعون ومات ابن ملك الالمان على عكا فى ذى الحجة من سنة ست ووصل الى المسلمين بعكا الاسطول المصرى فى خمسين شينيا (غنم) فى طريقه اليها بطس ومراكب فرنجية اسر رجالها وغنم اموالها وجرى له مصادمات مع مراكب الفرنج المحاصرة لعكا كانت الغلبة فيها للمسلمين فدخلوا الى عكا وتماسكت بما دخل فيها من الاقوات والسلاح وكان دخولها فى يوم الاثنين رابع عشر شعبان من سنة

ست وثمانين وفى هذا الشهر جهّز الفرنج بُطسًا متعدّدة لمحاصرة برج الدّبان وهو على باب مينا عكا فجعلوا على صوارى البطس برجًا وملوه خطبًا ونفطًا على انهم يسيرون بالبطس فاذا قاربت برج الدّبان ولاصقته احرقوا البرج الذى على الصارى والصقوه ببرج الدبان ليلقوه فى البرج اذا اشتعلت النار فيه وعبّوا بطسة ملوءها خطبا على انهم يدفعونها ليدخل بين بطس المسلمين ثم يلهبونها فتحرق بطس المسلمين وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل اليهم نُشّاب ويكونون تحت القَبْو ويقدمون البطسة الى البرج واوقدوا النار وضربوا النفط فانعكس الهوآء عليهم فاحترقت البطسة وهلك من فيها واحترقت البطسة الثانية واخذها المسلمون وانقلبت البطسة التى فيها القَبْو بمن فيها وفى هذه السنة فى ربيع الاول احرق المسلمون ما كان صنعه الفرنج من الات الحرب والزحف اليهم وهى ابرجة عظيمة المقدار يزحف بها على عجل وفيها المقاتلة والجروح والمجانيق فعمد لها رجلٌ دمشقى يعرف بعلى بن النحاس فرماها من السور بقدور نفط متتابعة وصار فيها ريحٌ غريبة كانت سببا لاحراق تلك الآلات وما فيها ومن فيها واشتدّ حصار الفرنج على عكا ومَلّ مَن بها من الاجناد المقام ووصل اليهم من مصر مراكب فيها غلة فاتلفوها بالاضاعة وبالتغريق تبرما بالمقام وفى ربيع الاول وصلت من بلاد الفرنج مراكب كثيرة فيها الوف من مقاتلة الفرنج من اكابرهم ملكان يُعرف احدهما بملك الفريسيس والآخر بملك انكتير فاشتدت وطأتهما على عكا وعظمت نكايتهما فى سورها وقلّ ما بها من الميرة والسلاح فامر السلطان بان اوسق مركب عظيمٌ من بيروت واستكثر فيه من السلاح والاقوات والمقاتلة واظهر عليه زىّ الفرنج

وشعارهم وأُخذ قومٌ من اسارى الفرنج الذين فى قبضة المسلمين فتركوا على ظاهر المركب وانزل معهم فى المركب جماعة من المسلمين ممّن يعرف لغة الفرنج وتزيّوا بزى الفرنج وحلقوا شُعُورَهم واخذوا معهم خنازير ورفعوا على قلع المركب صليبًا واوهموا الفرنج انهم واصلون اليهم نجدةٌ من بلادهم واقلعوا داخلين الى مرسى عكّا مسلّمين على الفرنج بلُغتهم مبشّرين لهم بانّ ورآءهم من المدد من يتشدد به مُنتهم وتعزّبه نصرتهم فلم يرتّب الحاصرون بذلك وافرجوا لهم عن المرسى فدخلوا الى عكا واوصلوا الى المسلمين بها ما كان معهم من المبيرة والسلاح والرجال وتمّت هذه الحيلة وكان من الفُرَص التى لا ينبغى ان تُعاوَدَ فركن المسلمون اليها وطمعوا فى اخرى مثلها فجهّزوا مركبًا عظيمًا من بيروت ايضا واودعوه مثل ما كان قبله من الآلات والسلاح والاقوات بما مبلغ قيمته خمسة آلاف دينار وجعل فيه سبع مائة من مقاتلة المسلمين وكان خبرهم قد وصل الى الفرنج فاخذوا عليهم الارصاد فمكثوا اياما يلجلجون فى البحر ويقاربون عكّا فلا يجدون فى الدخول مطمعًا حتى صادفتهم مراكب الانكتير فى حال قدومه من بلاده فى احدى وعشرين مركبا فقاتلوا ذلك المركب الاسلامى يومين وثبت لهم مع قلّته فغرق المسلمون من مراكب الفرنج ثلثة ولما راوا انهم قد يأسوا من النجاة وانّ الفرنج ان ظفروا بالمركب حصل لهم به قوة عظيمة وحصلوا فى الاسر والذلة عمد رجل حلبى حجّارٌ من اهل باب الاربعين يُقال له يعقوب وكان مقدم الجماعة الى سفل المركب واخذ قطاعته وخسف المركب ودخل فيه الماء وغرق ولم يظفر الكفار منه بشى سوا رجلين يخطفها الفرنج من راس الماء فاختملوهما

في مراكبهم فاخبرا بهذه الكاينة ولما وصل هذا الخبر الى عكا قطع قلوب من بها واسقط في ايديهم وهرب جماعة من الامراء منها فالقوا نفسهم في شخاتير صغار فاضعف ذلك قلوب من بقي بها وعظمت النكاية في سور المدينة وفشلوا وكاتبوا السلطان فاذن لهم مصالحة الفرنج عن انفسهم بالبلد فصالحوا الفرنج على تسليم البلد وجميع ما فيه من الالات والعُدَد والاسلحة والمراكب وغير ذلك وعلى مايتي الف دينار والف وخمس ماية اسير مجاهيل الاحوال وماية اسير معيّنين من جانبهم يختارونهم وصليب الصليوت على ان يخرجوا سالمين بانفسهم وذراريهم واموالهم وقماشهم وضمنوا للمركيس عشرة الف دينار لانه كان الواسطة ولاصحابه اربعة الاف وحلف الفرنج لهم على ذلك وتسلموا عكا في يوم الجمعة سابع عشر جمدى الاخرة سنة سبع وثمانين وخمس ماية ونكثوا ذلك العهد واسروا كل من كان بها من المسلمين وفرّقوا بينهم واستصفوا اموالهم وسلبوهم ثيابهم واسلحتهم ثم قتلوا منهم الفين ومايتين صبرا على دم واحد في يوم واحد حيث توقّعوا فيهم انهم فقرآء ليس لهم مُفَاد واسروا مَن رجَوا منه ان يقتدى بمال او يكون من السلطان على بال واقاموا بعكا نحو اربعين يومًا والملك الناصر على (حصانهم) ثم خرجوا منها متوجهين الى عسقلان فسار في عراضهم ليمنعهم ان يخرجوا من ساحل البحر فساروا من عكا الى يافا وهي مسيرة يوم واحد في شهر كامل لمضايقة السلطان لهم وجرى بينهم وبين المسلمين مناضلة ومطاردة فلما اشفق السلطان من اخذهم عسقلان سبق اليها فهدمها واخرج اهلها منها في شهر رمضان من سنة سبع فاقام الفرنج بيافا وانتقل السلطان الى الرملة وشرع الفرنج بنآء يافا وتحصينها

ثم ساروا عنها فنزلوا بعسقلان وشرعوا فى عمارتها ثم ساروا الى الدّارُوم فحصروها ثلاث مرات اخذوها فى المرة الثالثة بالامان وعاد السلطان فى ثالث ذى الحجة بالعساكر الى البيت المقدس وعمره وحصنه ووعّر طريقه وعمق خندقه وجعل الملك العادل بازآء الفرنج بالرملة وتُوفى الملك المظفر تقى الدين على منازكرد وهو محاصر لها بعد ان جرى له مصاف مع بكتمر صاحب خلاط وكسره تقى الدين ودخلت سنة ثمان وثمانين والسلطان بالبيت المقدس والملك العادل فى الرملة وقد صار بيد الفرنج مما كان بيد المسلمين من الفتوح ما بين عكا والدارُوم ولم يمكنهم مفارقة الساحل خوفًا من ان يحُول المسلمون بينهم وبين مراكبهم فتنقطع مادّتهم وعصى فيها الملك المنصور بن تقى الدين على السلطان بميافارقين وحيني وحران والرها وسميساط والموزر فسير اليه ابنه الملك الافضل واقطعه تلك البلاد الشرقية فسار الى حلب ومعه اخوه الملك الظّاهر ووصلا الى حلب فارسل السلطان اخاه الملك العادل جريدةً فى عشرين فارسًا من مماليكه وامره ان يرد الملك الافضل ويُطيّب قلب الملك المنصور ويُعْطيه ما يُريد فوصل الملك العادل واجتمع بالملك المنصور وقرر امره ثم ان السلطان جرت له احوال مع الفرنج ووقعات ومراسلات يطُول الكتاب (بتعدادها) الى ان انتظم الصلح بينه وبين الفرنج (وهو) حادى وعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين لمدة ثلاث سنين وخمسة اشهر على ان سلموا الى المسلمين عسقلان وغزّة والدّارُوم واقتصروا من البلاد الساحليّة على ما بين صُور ويافا بعد ان فتح السلطان يافا وبقى القلعة واتفق ملوك الجزاير من الفرنج على تمليك الساحل رجلاً منهم يُعرف بالكند هرى وزوّجوه بنت ملكهم

القديم التى قد استقر عندهم ان يجعلوها على كل من ملكوه وسار السلطان من القدس الى بيروت فى شوال ووصل الى خدمته صاحب انطاكية الابرنس وولده قومص طرابلس وخلع عليهما وجدّد بينه وبينهما الهدنة والعقد وفى سادس عشرى ذى القعدة دخل الى دمشق بعد مدة تقارب اربع سنين وكان الملك الظاهر قد ودّعه من القدس ورحل الى حلب فى شهر رمضان واخبرنى القاضى بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم انه ودّعه ثم سير اليه واستأذنه فى مراجعته فى اشياء فادخله اليه وكنتُ حاضرا ثم قال للملك الظاهر اوصيك بتقوى الله فانها راس كل خير وامرك بما امرك الله به فانه سبب نجاتك واحذّرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها فان الدم لا ينام واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى احوالهم فانت امينى وامينُ الله عليهم واوصيك بحفظ قلوب الامرآء وارباب الدولة والاكابر فما بلغتُ ما بلغتُ الاّ بمداراة الناس ولا تحقد على احد فان الموت لا يُبقى على احد واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يُغْفَر الاّ بِرضَاهُمْ وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم وفى شهر ذى القعدة سلم الى الملك المنصور ما كان لابيه بالشام وهو منبج وحماة وسلمية ومعرة النعمان وانقضت سنة ثمان وثمانين والهدنة مع الفرنج مستمرّة والملك الناصر بدمشق والملك الظاهر بحلب والملك العزيز بمصر والملك الافضل وهو اكبر ولد السلطان معه بدمشق فمرض السلطان فى اليوم الخامس عشر من صفر بحمى حادّة واختلط ذهنه فى السابع وحبس كلامه وانجذبت مادّة المرض الى دماغه وتوفى رحمه الله فى الثالث عشر من مرضه فى وقت الفجر من يوم الاربعآء السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمس مائة وليس فى خزانته من

Digitized by Google

المال يوم وفاته سوى دينار واحد صوري وسبعة واربعين درهمًا نقرة ودعوته على المنابر من اقصى حضرموت في الجنوب الى اوايل بلاد ارمينة في الشمال عَرضًا ومن طرابلس الغرب الى باب همذان طُولاً ونقودها من الدراهم والدنانير مضروبة باسمه وعساكرُها مطلعة لامره سايرة تحت لوايه ومن جُملة مُلكه ديار مصر والشام جميعه والجزيرة وديار بكر واليمن

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ ابوالا

تم

ما انتخبته من كتاب

زبدة الحلب من تاريخ حلب

من تاريخ احمد المقرى
وهو منقول باختصار يسير من الكتاب المسمى
بالشهب الثاقبة فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة
لابن سعيد

لما صارت الاندلس لبنى امية وتوارثوا ممالكها وانقاد اليهم كل ابى فيها واطاعهم كل عصى عظمت الدولة بالاندلس وكبرت الهمم وترتبت الاحوال وترتبت القواعد وكانوا صدرًا من دولتهم يخطبون لانفسهم بابناء الخلايف ثم خطبوا لانفسهم بالخلافة وملكوا من بر العدوة ما ضخمت به دولتهم وكانت قواعدهم اظهار الهيبة وتمكن الناموس من قلوب العالم ومراعاة احوال الشرع فى كل الامور وتعظيم العلماء والعمل باقوالهم واحضارهم فى مجالسهم واستشارتهم ولهم حكايات فى تاريخ ابن حيان منها ما هو مذكور من توجه الحكم على خليفتهم او على ابنه او احد حاشيته المختصين وانهم كانوا فى نهاية من الانقياد للحق لهم او عليهم وبذلك انضبط لهم امر الجزيرة ولما خرقوا هذا الناموس كان اول ما تهتك امرهم ثم اضمحل وكانت القاب الاول منهم الامراء ابناء الخلايف ثم الخلفاء امراء المومنين الى ان وقعت الفتنة بحسد بعضهم ببعض وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى رتبت عليه فاستبدت ملوك الممالك الاندلسية ببلادها وسموا بملوك الطوايف واستبدوا وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين ولم تبق لهم خلافة ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع

Digitized by Google

على امامتهم وصار ملوك الطوايف يتباهون فى احوال الملك حتى فى الالقاب فآل امرهم الى ان تلقبوا بنعوت الخلفآ وترفعوا الى طبقات السلطنة العظمى وذلك بما فى جزيرتهم من اسباب الترفه والضخامة لئلا تتوزع على ملوك شتى فتتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة ولاجل توثبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيروانى

مما يزهّدنى فى ارض اندلس ... تلقيب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد واقتفى سيرة المعتضد العباسى امير المؤمنين وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد وكانت لبنى عباد مملكة اشبلية ثم انضاف اليها غيرها وكان خلفاء بنى امية يظهرون للناس فى الاحيان على ابهة الخلافة وقانون لهم فى ذلك معروف الى ان كانت الفتنة فازدرت العيون ذلك الناموس واستخفت به وقد كان بنو حمود من ولد ادريس العلوى الذين توثبوا على الخلافة فى اثنآ الدولة المروانية بالاندلس يتعاظمون وياخذون انفسهم بما ياخذها خلفآ بنى العباس وكانوا اذا حضرهم منشد لمدح او من يحتاج الى الكلام بين ايديهم يتكلم من ورآء حجاب والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة ولما حضر ابن مقانا الاشبونى امام حاجب ادريس ابن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالقة فانشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله

وكان الشمس لما اشرقت ... فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه ادريس بن يحيى بن على بن حمود امير المومنين وبلغ فيها الى قوله

انظروا نقتبس من نوركم ... انه من نور رب العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال انظر كيف شيّت وانبسط مع الشاعر واحسن له ولما جاء ملوك الطوايف صاروا يتبسطون للخاصّة وكثير من العامة لمداراة الجند وعوام البلاد وكان اكثرهم بحاضر العلمآ والادبآ ان يشهر عنه ذلك عند مباريه فى الرياسة ومذ وقعت الفتنة بالاندلس اعتاد اهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن امام الجماعة وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث اعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ومرنوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع الى ان انقادوا الى عبد المومن وبنيه وتلك القواعد فى روسهم كامنة والشوار فى المعاقل تنزو وتضرم الكرة الى ان ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل ووجد قلوبا منحرفة عن دولة برّ العدوة مهيأة للاستبداد فملكها بايسر محاولة مع الجهل المفرط وضعف الراى وكان مع العامة كانه صاحب شعوذة يمشى فى الاسواق ويضحكه فى وجوههم ويبادرهم بالسؤال وجآء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان فاعجب ذلك سفهآ الناس وعامّتهم العميا وكان كما قيل شعر

امور يضحك السفهآء منها ويبكى من عواقبها الحليم

فآل ذلك الى تلف القواعد العظيمة وتملك الامصار الجليلة وخروجها من يد الاسلام والضابط فيما يقال فى شان اهل الاندلس فى السلطان انهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان وجوادا يبرع الاجواد بها فتوانى نصرته نصبوه ملكا من غير تدبير فى عاقبة آل الامر الى ما يؤول اليه وبعد ان يكون الملك فى مملكة قد توورثت وتدوولت ويكون فى تلك المملكة قايد من قوادها قد شهرت عنه وقايع فى العدو وظهر منه كرم نفس للاجناد ومراعاة قدموه ملكا

في حصن من الحصون ورضوا عيالهم واولادهم ان كان لهم ذلك بكرسي الملك ولم يزالوا في جهاد وتلاف انفس حتى يظفر صاحبهم بطلبته واعمل المشرق اصوب رايا منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه ليلا يدخل الخلل الذي يفضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع ونحن نمثل في ذلك مما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الاخيرة بالاندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له ارجونه ويعرف الرجل بابن الاحمر كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة الى ان سار اسمه في الاندلس وآل ذلك الى ان قدمه اهل حصنه على انفسهم ثم نهض فملك قرطبه العظمى وملك اشبليه وقتل ملكها الباجي وملك جيان احصن بلد بالاندلس واجله قدرًا في الامتناع وملك غرناطه ومالقه وسموه بامير المسلمين فهو الان المشار اليه بالاندلس والمعتمد عليه واما قاعدة الوزارة بالاندلس فانها كانت في مدة بني امية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ويخصّهم بالمجالسة ويختار منهم شخصًا لمكان النايب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك الى ان كانت ملوك الطوايف فكان الملك منهم لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية وانه كان نايبا عن خليفتهم يسمى بالحاجب ويرى ان هذه السمة اعظم ما تنوفس فيه وظفر به وهي موجودة في امداح شعرآيهم وتواريخهم وصار اسمر الوزارة عامًا لكل من يجالس الملوك ويختص بهم وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين واكثر ما يكون فاضلًا في علم الادب وقد لا يكون كذلك بل عالما بامور الملك خاصّة واما الكتابة فهي على ضربَيْن اعلاهما

Digitized by Google

كاتب الرسايل وله حظ فى القلوب والعيون عند اهل الاندلس واشرف اسمايه الكاتب وبهذه السمة يخطط من يعظمه فى رسالة واهل الاندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة فان كان ناقصًا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهُه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الالسن فى المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه والكاتب الآخر كاتب الزمام هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ولا يكون بالاندلس بر العدوة لا نصرانيا ولا يهوديا البتة اذ هذا الشغل نبيه يحتاج الى صاحبه عظماً الناس ووجوههم وصاحب الاشغال الخراجيّة فى الاندلس اعظم من الوزير واكثر اتباعًا واصحابًا واجدى منفعة فاليه تميل الاعناق وبحوه تمدّ الاكف والاعمال مضبوطة بالشهود والنظار ومع هذا ان تماثلت حالته واغتر بكثرة البنا والاكتساب نكب وصُودر هذا راجع الى تقلب الاحوال وكيفيّة السلطان واما خطة القضآء بالاندلس فهى اعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بامور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم تحضر بين يدى القاضى هذا وصفها فى زمان بنى امية ومن سلك مسلكهم ولا سبيل ان يتسمى بهذه السمة الا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة وان كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها الا مسدد خاصّة وقاضى القضاة يقال له قاضى القضاة وقاضى الجماعة واما خطة الشرطة بالاندلس فانها مضبوطة الى الآن معروفة بهذه السمة ويعرف صاحبها فى السن العامّة بصاحب المدينة وصاحب الليل واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن يجب عليه دون استيذان للسلطان وذلك قليل ولا يكون الا فى حضرة السلطان الاعظم وهو الذى يحد على الزنى وشرب الخمر وكثير من الامور الشرعية راجع اليه

Digitized by Google

قد صارت تلك العادة تقرر عليها رضى القاضى وكان خطة اوقع واتقى عندهم من ذلك واما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة فى اهل العلم والفطن وكان صاحبها قاض والعادة فيه ان يمشى بنفسه راكبًا على الاسواق واعوانه معه وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد احد الاعوان لان الخبز عندهم معلوم الاوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك للثمن وفى ذلك من المصلحة ان يرسل المبتاع الصبى الصغير او الجارية الرعنا فيستويان فيما ياتيانه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الاوزان وكذلك اللحم يكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار ان يبيع بدون ما حدّ له المحتسب فى الورقة ولا تكاد تخفى خيانته فان المحتسب يفرس عليه صبيًا او جارية يبتاع احدهما منه ثم يختبر الوزن المحتسب فان وجد نقصًا قاس على ذلك حاله مع الناس فلا تسال عمّا يلقى وان كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس فى الاسواق نفى من البلد ولهم فى اوضاع الاحتساب قوانين يتدارسونها كما تتدارس احكام الفقه لانها عندهم تدخل فى جميع المبتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره واما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب اصحاب ارباع فى المشرق فانهم يعرفون فى الاندلس بالدرابين لان بلاد الاندلس لها دروب باغلاق تغلق بعد العتمة ولكل زقاق باب فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معدة وذلك لشطارة عامّتها وكثرة شرهم واعيانهم فى امور التلصص الى ان يظهروا على المبانى المشيدة ويفتحوا الاغلاق الصعبة ويقتلوا صاحب الدار خوف ان يقر عليهم او يطالبهم بعد ذلك ولا تكاد فى الاندلس تخلو من سماع دار فلان دخلت البارحة وفلان ذبح اللصوص على فراشه وهذا يرجع التكثير منه والتقليل الى شدة

الموالي ولينه ومع افراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دماً فان ذلك لا يعدم وقد آل الحال عندهم الى ان قتلوا لعنقود سرقه شخص من كرم وما اشبه ذلك فلم ينْتَه اللصوص واما قواعد اهل الاندلس في ديانتهم فانها تختلف بحسب الاوقات والنظر الى السلاطين ولكن الاغلب عندهم اقامة الحدود وانكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وانكاره ان تهاون فيه اصحاب السلطان وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعباؤن بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم وهذا كثير في اخبارهم واما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للاعمال اذا لم يعدلوا فكل يوم وطريقة الفقر على مذهب اهل الشرق في الدروزة لله تكسل عن الكدر وتحوج الوجوه للطلب في الاسواق فمستقبحة عندهم الى نهاية واذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبُّوهُ واهانوه فضلاً عن ان يتصدقوا عليه فلا تجد بالاندلس سآيلا الا ان يكون صاحب عذر واما حال اهل الاندلس في فنون العلم فتحقيق الانصاف في شانهم في هذا الباب انهم احرص الناس على التميز فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد ان يتميز بصنعة ويربا بنفسه ان يرى فارغا عالة على الناس لان هذا عندهم في نهاية القبح والعالم عندهم مُعَظم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار او ابتياع حاجة وما اشبه ذلك ومع هذا فليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤن جميع العلوم في المساجد بأجرة فهم يقرؤن لان يعلموا لا لان ياخذوا جاريا فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ان يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم وكل العلوم لها عندهم حظ

Digitized by Google

واعتنآ الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة فانه كلما قيل فلان يقراء الفلسفة اويشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه فان زل فى شبهة رجموه بالحجارة او حرقوه قبل ان يصل امره للسلطان او يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثيرا ما يامر ملوكهم باحراق كتب هذا الشان اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن ابى عامر لقلوبهم اول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن على ما ذكره الحجارى والله اعلم وقراة القران بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة وللفقه رونق ووجاهة ولا مذهب لهم الا مذهب مالك وخواصهم يحفظون من ساير المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى ان الملثمين كانوا يسمون الامير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه لانها عندهم ارفع السمات وعلم الاصول عندهم متوسط الحال والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة حتى انهم فى هذا العصر فيه كاصحاب عصر الخليل لا يزداد مع هرم الزمان الا جدة وهم كثيروا البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه وكل عالم فى اى علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقايق فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء مع ان كلام اهل الاندلس الشايع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه اوضاع العربية حتى لو ان شخصا من العرب سمع كلام الشلوبينى او على المشار اليه بعلم النحو فى عصرنا الذى غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرى درسه لضحكه بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه والخاص منهم اذا تكلم

بالاعراب واخذ يجرى على قانون النحو استثقلوه واستبردوه ولكن ذلك مُراعى عندهم فى القراآت والمخاطبات فى الرسايل وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات انبل علم عندهم وبه يتقرب من مجالس ملوكهم واعلامهم ومن لا يكون فيه ادب من علمايهم فهو غفل مستثقل والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعرا من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم وظايف والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماآ ملوكهم المختلفة ويوقع لهم بالصلات على اقدارهم الا ان يختل الوقت ويغلب الجهل فى حين ما ولكن هذا الغالب واذا كان الشخص بالاندلس نحويا او شاعرا فانه يعظم فى نفسه لا محالة ويسخف ويظهر التجب عادة قد جبلوا عليها واما زىّ اهل الاندلس فالغالب عليهم تركه العمايم لا سيّما فى شرق الاندلس فان اهل غربها لا تكاد ترى فيها قاضيا ولا فقيهًا مشارًا اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك ولقد رايت عزيز بن خطاب اكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الاوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة وهو حاسر الراس فى شيبه وقد غلب على سواد شعره واما الاجناد وساير الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها او فى غرب وابن هود الذى ملك الاندلس فى عصرنا رايته فى جميع احواله ببلاد الاندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الاحمر الذى معظم الاندلس الآن فى يده وكثيرًا ما يتزيا سلاطينهم واجنادهم بزىّ النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم واقبيتهم من الاشكرلاط وغيره كاقبيتهم وكذلك اعلامهم وسروجهم ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن ولا يعرفون الدبابيس ولا قسى العرب بل يعدون قسى الافرنج للمحاصرات فى البلاد او تكون للرجالة عند المصافقة للحرب

وقليلا ما تعبر الخيل عليهم او تمهلهم لان يوتروها ولا تجد فى خواصّ الاندلس واكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان الا انه لا يضعه على راسه منهم الا الاشياخ المعظمون وغفاير الصوف كثيرًا ما يلبسونها حمرا وخضرا والصغر مخصوصة باليهود ولا سبيل الى يهودى ان يتعمم البتة والذوابة لا يرخيها الا العالم ولا يصرفونها بين الاكتاف وانما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى وهذه الاوضاع كلها بالشرق فى العمايم لا يعرفها اهل الاندلس وان راوا فى راس مشرقى دخل الى بلادهم شكلاً منها اظهروا التعجب والاستطراف ولا ياخذون انفسهم بتعليمها لانهم لم يعتادوا ولا يستحسنوا غير اوضاعهم وكذلك فى تفصيل الثياب واهل الاندلس اشدّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك ممّا يتعلق به وفيهم من لا يكون عنده الاّ ما يقوته يومه فيطويه صائمًا ويبتاع صابونًا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها وهم اهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى ايديهم حتى دلّ السؤال فلذلك قد ينسبون للبخل ولهم مروات على عادة بلادهم لو فطن لها حاتم لفضل دقايقها على عظايمه ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر اشدّ النيل فاوينا اليها وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو من الرفاهية فنزلنا فى بيت شيخ من اهلها من غير معرفة متقدمة فقال لنا ان كان عندكم بما اشترى لكم فحمًا تسخنون به فانى امضى فى حوايجكم واجعل عيالى يقومون بشانكم فاعطيناه ما اشترى به فحمًا فاضرم نارًا فجاء ابن له صغير ليصطلى فضربه فقال له والدى لم ضربته قال يتعلم استغنام مال الناس والصحبة للبرد من الصغر ثم لما جاء النوم قال لابنه اعط هذا الشاب كساك الغليظة

يزيدها على ثيابه فدفع كساءه الىّ ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبى منتبهًا ويده فى الكساء فقلت ذلك لوالدى فقال هذه مروات اهل الاندلس وهذا احتياطهم اعطاك الكسا وفضلك على نفسه ثم افكر فى انك غريب لا يعرف هل انت ثقة او لصّ فسلم يطبْ له منام حتى ياخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهونايم وعلى هذا الشى لحقير قس الشىء الجليل انتهى كلام ابن سعيد فى المغرب باختصار يسير

انتهى

ما نقلته من تاريخ

المرحوم الشيخ احمد المقرى

المنتخب

من الكتاب المسمى

بالعبر وديوان المبتداء والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر

لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى

فصل فى معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك انه الاجتماع الضرورى للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من اثار الغضب والحيوانية كانت احكام صاحبه فى الغالب جايرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى احوال دنياهم لحمله اياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من اغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلق والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجى المعصية المفضية الى الهرج والقتل فوجب ان يرجع فى ذلك فى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى احكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا اختلت الدولة فى مثل هذه السياسة لم يستتب امرها ولا يتم استيلاوها سنة الله فى الذين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء واكابر الدولة وبصايرها كانت سياسة عقلية واذا كانت مفروضة من الله سبحانه وتعالى بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا والاخرة وذلك ان الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفنا والله تعالى يقول افحسبتم

انما خلقناكم عبثا فالمقصود بهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة فى اخرتهم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض فجات الشرايع تحملهم على ذلك فى جميع احوالهم من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الانسانى فاجرته على منهج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشرع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب واعمال القوة الغضبية فى مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو فى مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمقتضى السياسة واحكامها من غير نظر الشرع فمذموم ايضا لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور لان الشارع اعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من امور اخرتهم واعمال البشر كلها عايدة عليهم فى معادهم من ملك او غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هى اعمالكم ترد عليكم واحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح اخرتهم فوجب بمقتضى الشرايع حمل الكافة على الاحكام الشرعية فى احوال دنياهم واخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء ومن قام مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وان الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الاخرة فهى فى الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

فصل فى اختلاف الامة فى حكم الخلافة وشروطها

واذ قد بيّنا حقيقة هذا المنصب وانه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به ويسمى خلافة وامامة والقايم به خليفة وامامًا وسماه المتاخرون سلطانًا حين فشا التعدد فيه واضطروا بالتباعد وفقدان شروط المنصب الى عقد البيعة لكل متغلب فاما تسميته اماما فتشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال الامامة الكبرى واما تسميته خليفة فلكونه مخلف النبى فى امته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف فى تسميته خليفة الله فاجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وقوله جعلكم خلايف الارض ومنع الجمهور منه لان معنى الاية ليس عليه وقد نهى ابو بكر عنه لما دعى به وقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله ولان الاستخلاف انما هو فى حق الغايب واما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجبٌ قد عُرف وجوبه من الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان اصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة ابى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر اليه فى امورهم وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ولم يترك الناس فوضى فى عصر من الاعصار واستقر ذلك اجماعا دالاً على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض الناس الى ان مدرك وجوبه العقل وان الاجماع الذى وقع فانما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الاغراض فما لم يكن للحاكم الوازع افضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع ان حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذى لحظ الحكماء

فى وجوب النبوات فى البشر وقد نبّهنا على فساده وان احدى مقدماته ان الوازع انما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر اهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما فى امم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب او لم تبلغه الدعوة او نقول يكفى فى رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم ان ارتفاع النزاع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الرؤسا اهل الشوكة او بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينتهض دليلهم العقلى المبنى على هذه المقدمة فدل على ان مدرك وجوبه انما هو بالشرع وهو الاجماع الذى قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب راسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هولآ انما هو امضا احكام الشرع فاذا تواطات الامة على العدل وتنفيذ احكام الله لم تحتج الى امام ولا يجب نصبه وهولآ محجوجون بالاجماع والذى حملهم على هذا المذهب انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما راوا الشريعة ممتلية بذم ذلك والبغى على اهله ومرغبة فى رفضه واعلم ان الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وانما ذم المفاسد الناشية عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك فى ان هذه مفاسد محظورة وهى من توابعه كما اثنى على العدل والنصفة واقامة مراسم الدين والذب عنه واوجب بازايها الثواب وهى كلها من توابع الملك فاذن انما وقع الذم للملك على صفة وحال دون اخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة

Digitized by Google

والغصب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكليّة لداعية الضرورة اليهما وانما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله عليهما الملك الذى لم يكن لغيرهما وهما من انبياء الله واكرم الخلق عنده ثم تقول لهم ان هذا الفرار من الملك بعدم وجوب هذا المنصب لا يغنيكم شيئا فانكم موافقون على وجوب اقامة احكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصبيّة والشوكة والعصبية مقتضية بطبعها للملك فيحصل الملك ولو لم ينصب امام وهو عين ما فررتم عنه واذا تقرر ان هذا المنصب واجب بالاجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار اهل الحل والعقد فيتعين عليهم نصبه وتجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى اطيعوا الله والرسول واولى الامر منكم ولا يجوز عقد هذا المنصب لاثنين معا وعليه جمهور العلماء وقوفا مع ظواهر الاحاديث التى دلت على ذلك فى صحيح مسلم فى كتابة الامارة وذهب اخرون الى ان ذلك انما هو فى البلد الواحد او فى حال تقاربهما واما عند التباعد وقصور الامام عن البلد الشاسع فيجوز نصب اخر هنالك للقيام بالمصالح ومن المشاهير الذين نقل عنهم ذلك الاستاذ ابو اسحق الاسفرايني شيخ المتكلمين ومال اليه امام الحرمين فى كتاب الارشاد وربما يظهر من اراء الاندلسيين والمغاربة الجنوح الى ذلك فقد كان العلماء بالاندلس متوافرين وبايعوا لبنى امية ولقبوا الناصر عبد الرحمن منهم وابناءه بامير المومنين التى هى سمة الخلافة كما ياتى وكذا الموحدون بعدهم بالمغرب وقد رد بعضهم ذلك بالاجماع وهو غير ظاهر اذ لو كان هناك اجماع لم يخالفه الاستاذ ابو اسحق ولا امام الحرمين فهم اقعد بمعرفة الاجماع نعم رد على الامام المازرى والنووى وقوفا مع ظواهر

الاحاديث كما قلناه وربما احتج لذلك بعض المتاخرين بدليل التمانع الذى فى التنزيل وهو قوله تعالى لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا ولا ينهض الاستدلال على ذلك بالاية الكريمة لان دلالتها عقلية نبهنا الله عليها ليحصل لنا التوحيد الذى امرنا باعتقاده بدليل عقلى فيكون ارسخ ومطلوبنا فى باب الامامة المنع من نصب امامين وهو شرعى تكليفى فلا يتم الاستدلال بها الا ان يقررها شرعية بزيادة مقدمة اخرى وهى ان التعدد ينشا عنه الفساد ونحن ممنوعون مما يجرّ اليه ويصير الاستدلال بها حينيذ شرعيا والله اعلم واما شروط هذا المنصب فهى اربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضا مما يوثر فى الراى والعمل واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى فاما اشتراط العلم فظاهر لانه انما يكون منفذا لاحكام الله اذا كان عالما وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكفى من العلم الا ان يكون مجتهدا لان التقليد نقص والامامة تستدعى الكمال فى الاوصاف والاحوال واما العدالة فلانه منصب دينى ينظر فى ساير المناصب التى هى شرط فيها فكان اولى باشتراطها فيه ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وامثالها وفى انتفايها بالبدع الاعتقادية خلاف واما الكفاية فهو ان يكون جريا على اقامة الحدود واقتحام الحروب جسيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبية واحوال الدها قويا على معاناة اسياسة ليصح له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وسياسة الدنيا وتدبير المصالح واما سلامة الحواس والاعضا من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يوثر فقده من الاعضاء فى العمل كفقد اليدين والرجلين والانثيين

فتشترط السلامة منها كلها لتاثير ذلك فى تمام عمله وقيامه ما جعل اليه وان كان انما يشين فى المنظر فقط كفقدان احدى هذه الاعضاء فيشترط منه شروط الكمال ويلحق بفقدان الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه فى اشتراط السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة كالاسر وشبهه وضرب لا يلحق بهذه وهو العجز باستيلاء بعض اعوانه عليه من غير عصيان ولا مشقة فينتقل النظر فى حال هذا المستولى فان جرى على حكم الدين والعدل وحميد السياسة جاز اقراره والا استنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع علته حتى ينفذ فعل الخليفة واما النسب القرشى فلاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الانصار لما هموا يوميذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا امير ومنكم امير بقول الله صلى الله عليه وسلم الأيمة من قريش وبان النبى صلى الله عليه وسلم اوصانا بان نحسن الى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحجوا الانصار ورجعوا عن قولهم منا امير ومنكم امير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك وثبت ايضا فى الصحيح لا يزال هذا الامر فى قريش وامثال هذه الادلة كثير الا انه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم وبما انفقهم الدولة فى ساير اقطار الارض عجزوا لذلك عن حمل الخلافة وتغلب عليهم الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا الى نفى اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر فى ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا واطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة وهذا لا تقوم به حجة فى ذلك فان خرج مخرج التمثيل

والغرض للمبالغة فى ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر لو كان سالم مولى ابى حذيفة حيا لوليته او لما داخلنى فيه الظنة وهو ايضا لا يفيد ذلك لما علمت ان مذهب الصحابى ليس بحجة وايضا فمولى القوم منهم وعصبية الولاء حاصلة بسالم بن قريش وهى الفايدة فى اشتراط النسب ولما استعظم عمر امر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة فى ظنه عدل الى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من الولاء المفيد للعصبية كما تذكر ولم يبق الا صراحة النسب فراه غير محتاج اليه اذ الفايدة فى النسب انما هى العصبية وهى حاصلة من الولاء وكان ذلك حرصا من عمر على النظر للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تلحقه به لايمة ولا عليه فيه عهدة ومن القايلين بنفى اشتراط القرشية القاضى ابو بكر الباقلانى لما ادرك عليه عصبية قريش من التلاشى والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فاسقط شرط القرشية وان كان موافقا لرأى الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده وبقى الجمهور على القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشى ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين ويرد عليهم سقوط شرط الكفاية لله بها يقوى على امره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك ايضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع ولنتكلم الان فى حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب فى هذه المذاهب فنقول ان الاحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشى ومقصد الشارع منه لم نقتصر فيه على التبرك بوصلة النبى صلى الله عليه وسلم كما هو فى المشهور وان

كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد اذن من مصلحة فى اشتراط النسب هى المقصودة فى مشروعيته واذا سبرنا وقسمنا لم نجدها الا اعتبار العصبية لله تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه الملة واهلها وينتظم حبل الالفة فيها وذلك ان قريشا كانوا انف مضر واصلهم واهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعرفون لهم ذلك ويستكينون لغلبهم فلو قد جعل الامر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبايل مضر ان يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكره فتفرق الجماعة وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر فى قريش لانهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراد منهم فلا يخشى من احد خلاف عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينيذ بدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشى فى هذا المنصب وهم اهل العصبية القوية ليكون ابلغ فى انتظام الملة واتقان الجماعة واذا انتظمت كلمتهم انتظم بانتظامها كلمة مضر اجمع فاذعن لهم سائر العرب وانقادت الامم سواهم الى احكام الملة ووطيت جنودهم قاصية البلاد كما وقع فى ايام الفتوحات واستمر بعدها فى الدولتين الى ان اضمحل امر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس اخبار العرب وسيرهم وتفطن لذلك من احوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحق فى كتاب

السير وغيره واذا ثبت ان اشتراط القرشية انما هو لرفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا ان الشارع لا يخص الاحكام بجيل ولا عصر ولا امة علمنا ان ذلك انما هو من الكفاية فرددناه اليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القايم بامور المسلمين ان يكون من قوم اولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم ويجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعمر ذلك في الاقطار والافاق كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية لله كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سايير الامم وانما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة لم يعد هذا لانه سبحانه انما جعل الخليفة نايبا عنه في القيام بامور عباده ليحملهم على مصالحهم ويرجعهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر من لا قدرة له عليه الا ترى ما ذكره الامام ابن الخطيب في شان النساء وانهن في كثير من الاحكام الشرعية جعلن تبعا للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع انما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الامر شي وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات لله كل واحد فيها قايم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم بامر امة او جيل الا من غلب عليهم وقل ان يكون الامر الشرعي مخالفا للامر الوجودي والله تعالى اعلم

فصل في مذاهب الشيعية في حكم الامامة

اعلم ان الشيعة لغة لهم هم الصحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه ان الامامة ليست

من المصالح العامة لله تفوض الى نظر الامة ويتعين القايم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز للنبي اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبايز والصغاير وان عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة بل اكثرها موضوع او مطعون فى طريقه او بعيد عن تاويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعليّ مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا فى على ولهذا قال له عمر اصبحت مولى كل مومن ومومنة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم اقضاكم على ولا معنى للامامة الا القضاء باحكام الله وهو المراد باولى الامر الواجبة طاعتهم من الله بقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم والمراد الحكم والقضاء ولهذا كان حكما فى قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعنى على روحه وهو وصى وولى هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا على ومن الخفي عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا لقراة سورة براة فى الموسم حين انزلت فانه بعث بها اولا ابا بكر ثم اوحى اليه ليبلغه رجل منك او من قومك فبعث عليا ليكون القارى المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي وايضا فلم يعرف انه قدم احدا على على واما ابو بكر وعمر فقد قدم عليهما فى غزاتين اسامة بن زيد مرة وعمرو بن العاص اخرى وهذه كلها عندهم ادلة شاهدة بتعيين علىّ للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تاويلهم ثم منهم من يرى ان هذه النصوص تدل على تعيين على وتشخيصه ولذلك تنقل

منه الى من بعده وهولا هم الامامية ويتبرؤن من الشيخين حين لم يقدّموا عليا ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ويغمصون فى امامتهما ولا تلتفت الى نقل القدح فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول ان هذه الادلة انما اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهولا هم الزيدية ولا يتبرون من الشيخين ولا يغمصون فى امامتهما مع قولهم ان عليا افضل منهما لكنهم يجوّزون امامة المفضول مع وجود الافضل ثم اختلف هولا الشيعة فى مساق الخلافة بعد على فمنهم من ساقها فى ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد على ما نذكره بعد وهولا يسمون الامامية نسبة الى مقالتهم باشتراط معرفة الامام وتعيينه فى الايمان وهو اصل مذهبهم ومنهم من ساقها فى ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيعة وبشرط ان يكون الامام منهم عالما زاهدا جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهولا هم الزيدية نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن على بن الحسين السبط وقد كان يناظر اخاه محمد الباقر على اشتراط الخروج فى الامام فيلزمه الباقر ان لا يكون ابوهما زين العابدين اماما لانه لم يخرج ولا تعرّض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة واخذه اياها عن واصل بن عطا ولما ناظر الامامية زيدا فى امامة الشيخين وراوه يقول بامامتهما ولا يتبراء منهما رفضوه ولم يجعلوه من الايمة وبذلك سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد على او ابنيه السبطين على اختلافهم فى ذلك الى اخيهما محمد بن الحنفية ثم الى ولده وهم الكيسانية نسبة الى كيسان مولاه وبين هذه الطوايف اختلافات تركناها اختصارا وفيهم طوايف يسمون الغلاة تجاوزوا حدود العقل والايمان فى

Digitized by Google

القول بالاهية هولاء الايمة اما على انه بشر اتصف بصفات الالهية وان الاله حل فى ذاته البشرية وهو قول بمثل الحلول يوافق مذاهب النصارى فى عيسى عليه الصلاة والسلام ولقد حرق على رضى الله عنه بالنار من ذهب الى ذلك فيهم وشخط محمد بن الحنفية المختار بن ابى عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنه والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق بمن بلغه مثل ذلك عنه ومنهم من يقول ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقل روحه الى امام اخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ ومن هولاء الغلاة من يقف عند واحد من الايمة لا يتجاوزه الى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهولاء الواقفية فبعضهم يقول هو حى لم يمت الا انه غايب عن اعين الناس ويستشهدون لذلك بقطبية الخضر قيل مثل ذلك فى على رضى الله عنه وانه فى السحاب والرعد صوته والبرق سوطه وقالوا مثله فى محمد ابن الحنفية وانه فى جبل رضوى من ارض الحجاز قال شاعرهم كثير

الا ان الايمة من قريش ... ولاة الحق اربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر ... وسبط غيبته كرب وبلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثنى عشرية منهم يزعمون ان الثانى عشر من ايمتهم وهو محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة وتغيب حين امتقل مع امه وغاب هنالك وهو يخرج اخر الزمان فيملا الارض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع فى كتاب الترمذى فى المهدى

Digitized by Google

وهم الى الان ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قربوا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجعون الامر الى الليلة القابلة وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هولا الواقفية يقول ان الامام الذى مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع فى القران الكريم من قصة اهل الكهف والذى مر على قرية وقتيل بنى اسرائيل حين ضرب ببعض البقرة الله امروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق لله وقعت على طريق المعجزة فلا يصح الاستشهار بها فى غير موضعها وكان من هولا السيد الحميرى ومن شعره فى ذلك

اذا ما المرء شاب له ذؤاد ... وعللة المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشتم واودى ... فقم يا صاح نبك على الشباب
فليس بعايد ما فات منه ... الى احد الى يوم الاياب
الى يوم يقوم الناس فيه ... الى ربنا هم قبل الحساب
ادين بان ذلك دين حق ... وما انا فى النشور بذى ارتياب
كذلك الله اخبر عن اناس ... حيوا من بعد درس فى التراب

وقد كفانا مؤنة هولا الغلاة ايمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجاتهم عليها فاما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد الحنفية الى ابنه ابى هاشم وهولا الهاشمية ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى اخيه على ثم الى ابنه الحسن بن على والخشبية زعموا ان ابا هاشم لما مات بارض الشراة منصرفا الى الشام اوصى الى محمد بن على بن عبد الله بن عباس واوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام واوصى ابراهيم الى اخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح واوصى هو الى اخيه عبد

الله ابى جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت فى ولده بالنص والعهد واحد بعد واحد الى اخرهم وهذا مذاهب الهاشمية القائلين بدولة بنى العباس وكان منهم ابو مسلم وسليمان بن كثير وابو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعتمدون ذلك بان حقهم فى هذا الامر يصل اليهم من العباس لانه كان حيا عند الوفاة وهو اولى بالوراثة بعصبية العمومية واما الزيدية فساقوا الامامة على مذاهبهم فيها وانها باختيار ايمة الحل والعقد لا بالنص فقالوا بامامة على ثم ابنه الحسن ثم اخيه الحسين ثم ابنه على زين العابدين ثم ابنه زيد بن على وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا الى الامامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بامامة ابنه يحيى من بعده فمضى الى خراسان وقتل بالجوزجان بعد ان اوصى الى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدى وجات عسكر المنصور فهزم وقتل وعهد بالامر الى اخيه ابراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن على فزحف اليهم المنصور فى عساكره وقواده فهزم وقتل ابراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق قد اخبرهم بذلك كله وهى معدودة فى كراماته وذهب اخرون منهم الى ان الامام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن على بن على بن عمر وعمر هو اخو زيد بن على فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم فحبسه ومات فى محبسه وقال اخرون من الزيدية ان الامام بعد يحيى بن زيد هو اخوه عيسى الذى حضر مع ابراهيم بن عبد الله فى قتاله مع المنصور ونقلوا الامامة فى عقبه واليه انتسب داعى الزنج كما نذكره فى اخبارهم وقال اخرون من الزيدية ان الامام

Digitized by Google

بعد محمد بن عبد الله اخو ادريس الذى فر الى المغرب ومات هنالك وقام بامره ابنه ادريس بن ادريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكا بالمغرب الى ان انقرضوا كما تذكر فى اخبارهم وبقى امر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعى الذى ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط واخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة فى الديلم الناصر الاطروش منهم واسلموا على يده وهو الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر وعمر اخو زيد بن على فكانت لبنيه فى طبرستان دولة وتوصل الديلم من سببهم الى الملك والاستبداد على الخلفا ببغداد كما نذكر فى اخبارهم واما الامامية فساقوا الامامة من على الوصى الى ابنه الحسن بالوصية ثم الى اخيه الحسين ثم الى ابنه على زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افترقوا فرقتين فرقة ساقوها الى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنى عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الايمة وقولهم بغيبته الى اخر الزمن كما مر واما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسمعيل الامام بالنص من ابيه جعفر الصادق وفايدة النص عليه عندهم وان كان قد مات قبل ابيه انما هى بقا الامامة فى عقبه كقصة هرون مع موسى صلوات الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو اول الايمة المستورين لان الامام عندهم قد لا تكون له شوكة فيستتر وتكون دعاته ظاهرين اقامة الحجة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهر واظهر دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو اخر

المستور بن وبعده ابنه عبيد الله المهدى الذى ظهر داعيته ابو عبد الله الشيعى فى كتامه وتابعه الناس على دعوته ثم اخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان والمغرب وملكه بنوه من بعده مصر كما هو معروف فى اخبارهم ويسمى هؤلا الاسماعيلية نسبة الى القول بامامة اسماعيل ويسمون ايضا الباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن اى المستور ويسمون ايضا الملاحدة لما فى بعض مقالاتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها الحسن بن محمد الصباح فى اخر المائة الخامسة وملكه حصونا بالشام والعراق ولم تزل دعوته فيها الى ان تورعها الهلاكو بن هلاكو الترك بمصر وملوك الطوط بالعراق فانقرضت ومقالات هذا الصباح فى دعوته مذكورة فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى واما الاثنى عشرية وربما خصوا باسم الامامية عند المتاخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر لوفاة اخيه الاكبر اسمعيل الامام فى حياة ابيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المامون ومات قبله فلم يتم له امر ثم ابنه محمد التقى ثم ابنه على الهادى ثم ابنه حسن العسكرى ثم ابنه محمد المهدى المنتظر الذى قدمنا ذكره وفى كل واحد من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير لان هذه اشهر مذاهبهم ومن اراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتب الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء

فصل فى معنى البيعة

اعلم ان البيعة هى العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد امير على انه يسلم اليه النظر فى امر نفسه وامور المسلمين

لا ينازعه فى شى من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم فى يده توكيدا للعهد فاشبه ذلك فعل البايع والمشترى فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدى هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد بالحديث فى بيعة العقبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيث ما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفا ومنه ايمان البيعة لان الخلفا كانوا يستحلفون على هذا العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك فسمى هذا الاستيعاب ايمان البيعة وكان الاكراه فيها اغلب ولهذا لما افتى مالك رضى الله عنه بسقوط يمين الاكراه انكرها الولاة عليه وراوها قادحة فى ايمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضى الله عنه واما البيعة المشهورة لهذا العهد فهى تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل اطلق عليها اسم البيعة لله هى العهد على الطاعة مجازا لما كان الخضوع فى التحية والتزام الاداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صار حقيقة عرفية استغنى بها عن مصافحة ايدى الناس لله هى الحقيقة فى الاصل لما فى المصافحة لكل احد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون الجانب الملوكى الا فى الاقل ممن يقصد التواضع من الملوك فياخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير اهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة فى العرف فانه اكيد على الانسان معرفة لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا تكون افعاله عبثا ومجانا واعتبر ذلك من افعالكم مع الملوك والله القوى العزيز

فصل فى اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة

وهو محدث منذ عهد الخلفا وذلك انه لما بويع ابو بكر

رضى الله عنه كان الصحابة وسايرُ المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ولم يزل الامر على ذلك الى ان هلك فلما بويع لعمر رضى الله عنه بعهده اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله وكانهم استثقلوا هذا اللقب لطوله وكثرة اضافاته وانه تزيد فيما بعد دايما الى ان ينتهى الى الهجنة ويذهب منه التمييز بتعدد المضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا يعدلون عن هذا اللقب الى سواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الامير وهو فعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبى صلى الله عليه وسلم امير مكة وامير الحجاز وكان الصحابة ايضا يدعون سعد بن ابى وقاص امير المسلمين لامارته على جيش القادسية وهو معظم المسلمين يوميذ واتفق ان بعض الصحابة نادى عمر رضى الله عنه باسم امير المومنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال اول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسال عن عمر ويقول اين امير المومنين وسمعها اصحابه فاستحسنوه وقالوا اصبت والله اسمه انه امير المومنين حقا فدعوه به وذهب لقبا له فى الناس وتوارثه الخلفا من بعده سمة لا يشاركهم فيها احد سواهم سايرِ دولة بنى امية ثم ان الشيعة خصوا عليا رضى الله عنه باسم الامام نعتا له بالامامة لله هى اخت الخلافة وتعريضا بمذهبهم فى انه احق بامامة الصلاة من ابى بكر كما هو مذهبهم وبدعتهم فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده فكان كلهم يسمى بالامام ما دامو يدعون لهم فى الخفا حتى اذا يستولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده الى امير المومنين كما فعله

شيعة بني العباس فانهم ما زالوا يدعون ايمتهم بالامام الى ابراهيم الذي جهروا بالدعاة له وعقدوا الرايات للحرب على امره فلما هلك دعى اخوه السفاح بامير المومنين وكذا الرافضة بافريقية ما زالوا يدعون الايمة من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر لعبيد الله المهدي وكانوا ايضا يدعونه بالامام ولابنه ابي القسم من بعده فلما استوثق لهما الامر دعوا من بعدهما امير المومنين وكذا الادارسة بالمغرب كانوا يدعون ادريس بالامام وابنه ادريس الاصغر كذلك وكذا شانهم وتوارث الخلفا هذا اللقب بامير المومنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق المواطن التي هي دار العرب ومراكز الدولة واصل الملة والفتح وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفا يتميز به بعضهم عن بعض لما في امير المومنين من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا لاسمايهم الاعلام عن امتهانها في السنة السوقة وصونا لها عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والهادي والمهدي والرشيد الى اخر الدولة واقتفى اثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر وتجافى بنو امية عن ذلك اما بالمشرق فلبهم فجريا مع الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارق حينيذ ولم تتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة واما بالاندلس فتقليدا لسلفهم مع ما علموه من انفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن الخلافة التي اشاثر بها بنو العباس ثم بالعجز عن ملك الحجاز اصل العرب والملة والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وانهم انما منعوا بامارة القاصية انفسهم من ممالك بني العباس حتى اذا جآ عبد الرحمن الاخر منهم وهو الناصر بن الامير عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن الاوسط لاول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الخجر واستبداد الموالي

Digitized by Google

وعيثهم في الخلفا بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفا بالمشرق وافريقية وتسمى بامير المومنين وتلقب بالناصر لدين الله واخذت من بعده عادة ومذهبا لقن عنه ولم يكن لابايه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك الى ان انقرضت عصبية العرب اجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالى من العجم على بنى العباس والصنايع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على امر افريقية وزناتة على المغرب وملوك الطوايف بالاندلس على امر بنى امية واقتسموه وافترق امر الاسلام فاختلف مذاهب الملوك بالمغرب والمشرق في الاختصاص بالالقاب بعد ان تسموا جميعا باسم السلطان فاما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفا يخصونهم بالقاب تشريفية يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الملك وذخيرة الملك وامثال هذه وكان العبيديون ايضا يخصون بها امرآ صنهاجة فلما استبدوا على الخلفا قنعوا بهذه الالقاب وتجافوا عن القاب الخلافة ادبا معها وعدولا عن سماتها المختصة بها شان المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع المتاخرون من اعاجم المشرق حتى قوى استبدادهم الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة الى انتحال الالقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور وزيادة الى القاب كانوا يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما اضافوها الى الدين فقد يقولون صلاح الدين اسد الدين نور الله واما ملوك الطوايف بالاندلس فاقتسموا القاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر

والمنصور والمعتمد والمظفر وامثالها كما قال ابن شرف ينعى عليهم ذلك

مما يزهدني في ارض اندلس ... اسماء معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وقد مر ذكرهما واما صنهاجة فاقتصروا على الالقاب التي كانت خلفاء العبيديين يلقبونهم بها للتنويه مثل نصير الدولة وسيف الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما ادالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعد الشقة فيهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الالقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شان مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيا من هذه الالقاب الا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة ولما محى اسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبايل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من اهل الخير والاقتداء نزعت همته الى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي واوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي ابا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته اياه على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخليفة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورايته وخاطبه فيه بامير المسلمين تشريفا له واختصاصا فاتخذها لقبا ويقال انه كان دعي له بامير المسلمين من قبل ادبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على اثرهم داعيا الى الحق اخذا بمذاهب الاشعرية ناعيا على اهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف في ترك التاويل لظواهر الشريعة وما يؤول اليه ذلك كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى اتباعه الموحدين تعريضا بذلك النكير

وكان يرى راى اهل البيت فى الامام المعصوم وانه لا بد منه فى كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمى بالامام اولا لما قلناه من مذهب الشيعة فى القاب خلفايهم واردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه فى عصمة الامام وتنزه عنه اتباعه عن امير المومنين اخذا بمذاهب المتقدمين من الشيعة ولما فيها من مشاركة الاعمار والولدان من اعقاب اهل الخلافة يوميذ بالمشرق والمغرب ثم انتحل عبد المومن ولى عهده الملقب بامير المومنين وجرى عليه من بعده خلفاء بنى عبد المومن وال ابى حفص بافريقية من بعدهم استيثارا به عن سواهم لما دعى اليه شيخهم المهدى من ذلك وانه صاحب الامر واوليا‌وه من بعده كذلك دون كل احد لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دابهم ولما انتقض الامر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب اولوهم مذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة فى انتحال اللقب بامير المسلمين ادبا مع رتبة الخلافة الله كانوا على طاعتها لبنى عبد المومن اولا ولبنى ابى حفص من بعدهم ثم نزع المتاخرون منهم الى اللقب بامير المومنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا فى منزع الملك وتنميما لمذاهبه وسماته والله غالب على امره

فصل فى مراتب الملك والسلطان والقابها

اعلم ان السلطان فى نفسه ضعيف يحمل امرا ثقيلا فلا بد له من الاستعانة بابناء جنسه واذا كان يستعين بهم فى ضرورة معاشه وساير مونه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كف عدوان بعضهم عن بعض فى انفسهم بامضاء الاحكام الوازعة فيهم وكف العدوان عنهم فى اموالهم حتى

واصلاح مسابلتهم والى حملهم على مصالحهم وما يعمهم به البلوى
فى معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعايش والمكاييل والموازين
حذرا من التطفيف والى النظر فى السكة لحفظ النقود لئلا يتعاملون
بها من الغش والى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضى
بمقاصده فيهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية
من معاناة قلوب بالرجال ثم الاستعانة اذا كانت باولى القربى من
اهل النسب او التربية او الاصطناع القديم للدولة كانت اكمل لما يقع
فى ذلك من محاسنة خلقهم لخلقه فى الاستعانة قال تعالى اجعل لى
وزيرا من اهلى هارون اخى اشدد به ازرى واشركه فى امرى
وهو اما ان يستعين فى ذلك بسيفه او بقلمه او برايه ومعارفه او
بحجابه عن الناس ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر فى مهمته
او يدفع النظر فى الملك كله اليه ويعول فى كفايته فى ذلك
واضطلاعه به فلذلك قد توجد لرجل واحد وقد تفرق فى اشخاص
وقد يتفرع كل واحد منها الى فروع كثيرة كالقلم يتفرع الى
قلم الرسايل والمخاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات والى قلم
الحاسبة وهو صاحب الجباية والعطا وديوان الجيش وكالسيف يتفرع
الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور
ثم اعلم ان الوظايف السلطانية فى هذه الملة الاسلامية مندرجة
تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما
قدمناه فالاحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة
منها فى ساير وجوهها لعموم تعلق الحكم الشرعى بجميع افعال العباد
فالفقيه ينظر فى مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا
على الخلافة وهو معنى السلطان او تفويضا منها وهو معنى الوزارة
عندهم كما ياتى فى حدود نظره فى الاحكام والاموال وساير

Digitized by Google

السياسات مطلقا او مقيدا وفي موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك
من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظايف الله تحت
الملك والسلطان من وزارة او جباية او ولاية لا بد للفقيه من النظر
في جميع ذلك لما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في
الملة الاسلامية على رتبة الملك والسلطان الا ان كلامنا في وظايف
الملك والسلطان ورتبته انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجوه
البشر لا بما يخصها من احكام الشرع فليس من غرض كتابنا
كما علمت فلا نحتاج الى تفصيل احكامها الشرعية مع انها
مستوفاة في كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضي ابي
الحسن الماوردي وغيره من اعلام الفقهاء فان اردت استيعابها فعليك
بمطالعتها هنالك وانما تكلمنا في الوظايف الخلافية وافرادها لتمييز
بينها وبين الوظايف السلطانية فقط لا لتحقق احكامها الشرعية
فليس من غرض كتابنا فانا انما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة
العمران في الوجود الانساني والله الموفق الوزارة وهي ام الخطط
السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة
فان الوزارة ماخوذة اما من الوزارة وهي المعاونة او من الوزر وهو
الثقل كانه يحمل مع مفاعله اوزاره واثقاله وهو راجع الى المعاونة
المطلقة وقد كنا قدمنا في اول الفصل ان احوال السلطان وتصرفاته
لا تعدو اربعة انحآ لانها اما ان تكون في امور حماية الملكة واسبابها
من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر امور الحماية والمطالبة
وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا
العهد بالمغرب واما ان تكون في امور مخاطباته لمن بعد عنه في
المكان والزمان وتنفيذه الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا
هو الكاتب واما ان تكون في امور جبايته للمال وانفاقه وضبط ذلك

مع جميع وجوهه ان يكون بمضبعة وصاحب هذا وهو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق واما ان يكون فى مدافعة الناس ذوى الحاجات عنه ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن مهمة وهذا راجع لصاحب الباب الذى يحجبه فلا تعدوا احواله هذه الاربعة بوجه وكل خطة او رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها ترجع الا ان الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف الذى هو يقتضى مباشرة السلطان دايما او مشاركته فى كل صنف من احوال ملكه واما ما كان خاصا ببعض الناس او ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغر او ولاية او النظر فى امر خاص كحسبة الطعام او النظر فى السكة فان هذه كلها نظر فى احوال خاصة فيكون صاحبها تبعا لاهل النظر العام وتكون رتبته مرءوسة لاوليك وما زال الامر فى الدول قبل الاسلام هذا حتى اذا جاء الاسلام وصار الامر خلافة فذهبت هذه الخطط كلها بذهاب رسم الملك الا ما هو طبيعى من المعاونة بالراى والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله اذ هو امر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور اصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة ويختص مع ذلك ابا بكر بخصوصيات اخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون ابا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الاسلام وكذا عمر مع ابى بكر وعلى وعثمان مع عمر واما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا اميين لا يحسنون الكتاب ولا الحساب فكانوا يستعملون فى الحسبان اهل الكتاب او افرادا من موالى العجم من يجيده وكان قليلا فيهم واما اشرافهم فلم

يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم لله امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم يكن عندهم رتبة خاصة للامية لله فيهم والامانة العامة فى كتمان السقول وتاديته ولم تخرج السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هى دين وليست من السياسة الملكية فى شى وايضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة احسنها لان الكل كانوا يعبّرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستنيب فى كتابه متى عنّ له من يحسنه واما مدافعة ذوى الحاجات عن ابوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك وجدت رسوم السلطان والقابه كان اول شى بدا به فى الدولة شان الباب وسده دون الجمهور لما كان يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلى وبمعوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد جا ان عبد الملك لما ولى حاجبه قال له وليتك حجابة بابى الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعى الله وصاحب البريد فامر ما جا به وصاحب الطعام ليلا يفسده ثم استقصل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين فى امور القبايل والعصايب واستيلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقى امر الحسبان فى الموالى والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطه على سايير اسرار السلطان ان تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لان انما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذى هو الكلام اذا اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبتهم يوميذ هذا سايير دولة

بنى امية فكان النظر للوزير عاما فى احوال التفويض والمفاوضات وسايرِ امور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر فى ديوان الجند وفرض العطايا لاهله وغير ذلك فلما جات دولة بنى العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شان الوزير وصار اليه النيابة فى انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته فى الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت الرقاب وجعل له النظر فى ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطته من قسمر الاعطيات فى الجند فاحتاج الى النظر فى جمعه وتفريقه واضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ودفع اليه فصار اسمر الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم وسايرِ معانى الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان ايام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من المراتب السلطانية كلها الا الحجابة لله ﷻ القيام على الباب فلم تكن له الاستكنافة عن مثل ذلك ثم جاء فى الدولة العباسية شان الاستبداد على الخلفاء وتعاور فيها استبداد الوزراء مرة والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام الشرعية وتجرى على حالها كما تقدم فانقسمت الوزارة حينيذ الى وزارة تنفيذ وهى حال ما يكون السلطان قايما على نفسه والوزير كالوكيل فى تنفيذ احكامه والى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدا عليه وقد فوض اليه الخليفة جموع امور خلافته وجعلها لنظره واجتهاده وجرى حينيذ الخلاف فى العقد لوزيرين معا بوزارة التفويض مثل ما جرى من العقد لامامين معا وقد تقدم فى الاحكام الخلافية ثم استمر الاستبداد وصار الامر لملوك العجم وتعطل رسمر الخلافة ولم يكن لاولئيك المتغلبين ان

Digitized by Google

ينتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب لانهم
خول لهم فتسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة
يسمى امير الامراء والسلطان الى ما يجليه به الخليفة من القابه كما
تراه فى القابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة فى
خاصته ولم يزل هذا الشان عندهم الى اخر دولتهم وفسد الشان
خلال ذلك كله وصار صناعة يتنحلها بعض الناس فامتهنت ورفع
الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليس تلك البلاغة هى المقصد
من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به وصارت خاصة
الوزير واختص اسم الامير بصاحب الحرب والجند وما يرجع اليها
ويده مع ذلك عالية على اهل الرتب وامره نافذ فى الكل اما نيابة او
استبدادا واستمر الامر على هذا ثم جاءت دولة الترك اخرا بمصر
فراوا الوزارة قد ابتذلت بترفع اوليائها عنها ودفعها لمن يقوم بها
للخليفة المحجور ونظره مع ذلك معقب بنظر الامير فصارت مرؤسة
فاقصة فاستنكف اهل هذه الرتبة العالية فى الدولة عن اسم
الوزارة وصار صاحب الاحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنايب
لهذا العهد واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية واما دولة
بنى امية بالاندلس فابقوا اسم الوزارة فى مدلوله اول الدولة ثم قسموا
خطته اصنافا وافردوا كل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا
وللترسيل وزيرا وللنظر فى حوايج المتظلمين وزيرا وللنظر فى احوال
اهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش ممتدة
لهم وينفذون امر السلطان فكان كل فيما جعل له وافرد للتردد
بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى
كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم
يزل الشان هذا الى اخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على
سائر الرتب حتى صار ملوك الطوايف ينتحلون لقبها فاكبرهم

يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية وقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فاغفلوا امر هذه الخطط اولا وتنقيح اسمايها حتى ادركت دولتهم الحضارة فصاروا الى تقليد الدولتين قبلهم في وضع اسمايها كما تراه في اخبار دولتهم ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك اغفلت الامر اولا للبداوة ثم صارت الى انتحال الاسماء والالقاب وكان اسم الوزارة في مدلوله ثم اتبعوا دولة الامويين وقلدوها في مذاهب السلطان واصاروا لسمر الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والاداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشان ذلك الى هذا العهد واما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الاداب في اللقاء والتحية في مجلس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه يسمونه الدوادار ويضيفون اليه استنباع كاتب السر واصحاب البرد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وفي الحضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله متبول الامور الحجابة قد قدمنا ان هذا اللقب كان مخصوصا في الدولة الاموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم او يفتحه لهم على قدره وفي مواقيته وكانت هذه منزلة يوميذ عن الخطط مرموسة لها اذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا لساير ايام بني العباس والى هذا العهد فهي بمصر مرموسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنايب واما في دولة بني امية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في اخبارهم كابن حُدير وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستيداد على الدولة اختص المستبد باسم

الحجابة لشرفها فكان المنصور بن ابى عامر وابناه كذلك ولما بدوا فى مظاهر الملك واطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوايف فلم يتركوا لقبها وكان يعدّونه شرفا لهم وكان اعظمهم ملكا بعد انتحال القاب الملك واسمايه لا بد له من ذكر الحاجب وذى الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان من العامة والخاصة وبذى الوزارتين على جمعة لحظتى السيف والقلم ثم لم يكن فى دول المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التى كانت فيهم وربما يوجد فى دولة العبيديين بمصر عند استغلاظها وحضارتها الا انه قليل ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية الى انتحال الالقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالاسماء الا اخرا فلم يكن عندهم من الرتب الا الوزير فكانوا اولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان فى خاص امره كابن عطية وعبد السلام اللومى وكان له مع ذلك النظر فى الحسبان والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا فى دولتهم يوميذ واما بنو ابى حفص بافريقية فكانت الرياسة فى دولتهم اولا والتقدم لوزير الراى والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر فى الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة اخرى سمى متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق فى الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه ان يكون من الموحدين واختص عندهم القلم ايضا بمن يجيد الترسيل ويوتمن على الاسرار لان الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين فى داره الى قهرمان خاص بداره فى احواله يجريها على

قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة فى المطابخ والاستطبلات وغيرها وحضر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه فى ذلك على اهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما اضافوا له كتاب العلامة على السجلات اذا اتفق ان يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطه بين الناس وبين اهل الرتب كلهم ثم جمع له اخر الدولة السيف والحرب ثم الراى والمشورة فصارت الخطة ارفع الرتب واوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثانى عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حافده السلطان ابو العباس على نفسه واذهب اثار الحجر والاستبداد باذهاب خطة الحجابة الا كانت سلما اليه وباشر امورها كلها بنفسه من غير استعانة باحد والامر فى ذلك لهذا العهد واما دول زناتة بالمغرب واعظمها دولة بنى مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندهم واما رياسة الحرب والعساكر فهى للوزير ورتبة القلم فى الحسبان والرسايل راجعة الى من يحسنها من اهلها وان اختصت ببعض البيوت من المصطنعين فى دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرق واما باب السلطان وحجبه عن العامة فهى رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان فى تنفيذ اوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته وحفظ المعتقلين فى سجونه والعريف عليهم فى ذلك فالباب له واخذ الناس بالوقوف عند الحدود فى دار العامة راجع اليه فكانه وزارة صغرى واما دولة بنى عبد الواد فلا اثر عندهم لشى من هذه الالقاب ولا تمييز للخطط لبداوة دولتهم وقصورها وانما يخصون باسم الحاجب فى بعض الاحوال منفذ الخاص بالسلطان فى داره كما كان فى دولة بنى ابى حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجلات كما كان فيها

حملهم على ذلك تقليد الدولة كما كانوا فى بيعتها وقايمين بدعوتها مذ اول امرهم واما اهل الاندلس لهذا العهد فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وساير الامور المالية يسمونه بالوكيل واما الوزير فكالوزير الا انه قد يجمع له الترسيل والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطه للعلامة كما لغيرهم من الدول واما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من اهل الشوكة وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس فى المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة الله لها الحكم فى اهل الدولة وفى العامة على الاطلاق وللنايب التولية والعزل فى بعض الوظايف على الاحيان ويقطع القليل من الارزاق ويثبتها وينفذ اموره ومراسمه كما ينفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب الحكم فقط فى طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم واجبار من لا ينقاد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير فى دولة الترك هو صاحب جباية الاموال فى الدولة على اختلاف اصنافها من خراج او مكس او جزية ثم تصريفها فى الاتفاقات السلطانية او الجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل فى ساير العمال الباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين اصنافهم ومن عوايدهم ان يكون هذا الوزير من صنف القبط القايمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك فى مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة من رجالات الترك او ابنايهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها بحكمته لا اله الا هو

CORRIGENDA.

Pag.	٢	l. 12	Loco	مُكْتَ	legendum مُكْتِ
—	٣	l. 11	—	يَسْتَخْرِجُ	— يَسْتَخْرِجُ
—	٧	l. 5	—	تُؤَاخِذْنَا	— تُؤَاخِذْنَا
—	٨	l. 9	—	أُدِرْتُنْ	— أُدِرْتُمْ
—	١	l. 8	—	يَكْتُنْنَ	— يَكْتُنَّ
—	١٠	l. 1	—	يَتَبَاعُونَ	— يَتَبَاعُونَ
—	»	l. 9	—	فُجِ	— فُجِّ
—	١٣	l. 4	—	أَرْتَأَى	— أَرْتَأَى
—	١٥	l. 10	—	عُوا	— عُوا
—	١٦	l. 15	—	ٱلْفَرَسِ	— ٱلْفَرَسُ
—	١٨	l. 13	—	مِنْ	— مِنْ
—	١٩	l. 6	—	ٱبْقَاوَهُ	— ٱبْقَاوَهُ
—	«	l. 8	—	لَكُمْ	— لَكُمْ
—	٢١	l. 10	—	مَاشَدَهْ	— مَاشَدَهْ
—	«	l. 15	—	أَمَا	— أَمَا
—	٢٣	l. 1	—	هَذِهِ	— هَذِهِ
—	«	l. 3	— Delendum est signum ؟ ante		وهي
—	٢٦	l. 10	—	نَتَصَرَّفُ	— نَتَصَرَّفُ
—	٢٧	l. 13	— Post ٱللهِ ponendum signum ؟.		
—	٣٣	l. 5	— Pro دينار legendum		درهم
—	٤٠	l. 8	—	مقدّم	— مقدّم
—	٤١	l. 11	—	وَٱسْتَحْسَن	— وَٱسْتَحْسَن
—	٤٤	l. 6	—	وناخ	— وناخ
—	٤٩	l. 8	—	فبعثت	— فبعثت

Digitized by Google

Pag. ٣٨ l. 6 Loco	جبّاك	legendum حبّاك
— ٥١ l. 10 —	مُكْروه	مَكْروه
— ٥٢ l. 15 —	وحلّ	وحُلّ
— ٥٣ l. 15 —	عطاء	عطاء
— ٥٤ l. 8 —	قَماش	قُماش
— ٥٥ l. 16 —	اغْوَر	أَعْوَرَ
— ٦٦ l. 7 —	اجا	اخا
— ٦٨ l. 12 —	موقّتْ	موقّتْ
— ٧٠ l. 1 —	تَعْفُو	تَعْفُو
— « l. 15 —	امير	امير المومنين
— ٧٢ l. 4 —	مشهودا	مشهورا
— ٧٩ l. 10 —	وجدنى	وجعدنى
— ٨٥ l. 2 —	وضع	ووضع
— ٨٧ l. 8 —	وهى	وهَى
— « l. 13 —	بلى	بَلَى
— ٩١ l. 17 —	وجوه	وجوه
— ٩٤ l. 17 —	مشورة	مَشْوَرة
— ٩٨ l. 23 —	وتخلف	وتخلّف
— ١٠٠ l. 6 —	وسار اليها	وساروا اليها
— ١٠١ l. 19 —	الاحترين	الاحترين
— ١٠٥ l. 4 —	يطمعه	يطمعه
— ١٠٩ l. 19 —	الخناقية	الخناقية
— ١١٠ l. 7 —	الفاجر	الفاخر
— ١١٣ l. 1 —	التوقير	التوقير
— « l. 6 —	الاحصر	الاحصر
— ١١٥ l. 7 —	من ذى	فى ذى
— ١١٧ l. 8 —	حيدر	خندر
— ١١٩ l. 6 —	القصد	قصد
— ١٢١ l. 19 —	القوافل	القوافل

Digitized by Google

Quibus autem intelligendis ne subsidia omnino deessent, grammaticam et breviorem et facilem intellectu conscribere, simul textum Arabicum animadversionibus maximam partem grammaticis, quae grammaticae istius regulis consentaneae essent, illustrare in animo habebam. Quod consilium vehementer probandum ut mutarem, quum rerum mearum tenuitas, qua impensae in tantum opus faciendae impar essem, tum animi mei conditio, qua jam ad alia studia vocarer, impulit.

Animadversiones, quibus editorum varia loca grammatice illustrarentur, et grammaticam tironum usui aptam edendi quod ceperam consilium, non quidem prorsus abjeci, et quae semper erat Dei optimi maximi summa in me clementia, qua vires operi faciendo necessarias suppeditabat, non est cur perficere non sperem; at vero quum talis sit vitae meae conditio, ut quo tempore res a me perfici possit, sim incertus, libellum hunc, cujus major pars jam dudum perfecta erat, non amplius, quin in lucem emitterem, apud me retinendum putavi, sperans fore, ut, qui propositis exemplis studiose et diligenter uterentur, inde utilitatem caperent.

Scribebam Bonnae Idibus Martiis 1834.

Digitized by Google

Selecta ex historia Halebi Parisiis, alias post edidi, herois illius in Oriente et apud nos celeberrimi, qui Francorum tum temporis in Palaestina imperium Hierosolymis expugnatis fregit, Saladini praecipue in Syria res gestae narratae sunt.

Tertio loco ex opere historico viri Ahmed Almokri appellati, agendi ratio moresque Arabum in Hispania degentium descripti sunt.

Loco denique quarto ex libro Ahbd-Alrahmani ben-Muhammedis Ebn-Chalduni (†808), quem in historiam prolegomena appellare licet, scriptum est de Chalifatu seu imperatoris Muhammedi succedentis dignitate, Imamatu seu summi sacerdotis principatu, de doctrina sectae Schiitarum, quae spectat summum sacerdotium, de sacramento regi dicendo, de regis nomine, quo princeps fidelium appellabatur, de muneribus, quibus alii apud regem fungebantur, et regum cognominibus.

In edendis autem locis, excepto ultimo, quum praeter unum nullus ad manum fuerit codex, quae res edenti magnam exhibet molestiam, si singula aut non omnino perspicua aut non omnibus numeris perfecta videantur, veniam quaeso dent mihi viri docti.

Quibus a me editis multa alia addere, olim erat in animo, tractatis enim locis variis, stylo prosaico scriptis, pergere volebam ad prosam orationem, quam dicunt rhythmicam seu homoioteleuto ornatam, libro denique finem impositurus, varia quum discentibus prosae rhythmicae tum faciliora tum difficiliora exempla proposuissem, carminibus et antiquissimi et novissimi temporis.

Digitized by Google

pertractatis, id potissimum erit agendum, ut quamprimum discentibus gentis Arabicae admirabile ingenium et singularis agendi ratio ante oculos ponatur, qua quidem re nil potest esse aut aptius ad litterarum illarum amorem inflammandum aut efficacius ad studium discendi, ex quo omnis docendi successus pendet, et excitandum et augendum et conservandum.

Locmani autem fabulae, quibus legendis et interpretandis in studium linguae Arabicae introduci solet, magis ob rerum meliorum defectum, quam quod rei sint convenientes, in istum usum electae videntur. Quid, quod a Graecis habuerint originem, neque sermonis aut puritate aut elegantia insignes. Tironibus igitur ad interpretandum aptiores res propositurus e codice Havniensi narratiunculas quasdam et bene scriptas et intellectu faciles, quibus Arabum tum cogitandi tum agendi ratio depingitur, elegi.

Quae autem ad historiam pertinentia sequuntur, et nescio an aut gravioris momenti aut ad discendum magis excitans reperiatur res ulla, ea argumenti, quod paucis indicare liceat, varietate distinguuntur.

Primo loco, quem ex libro scriptoris paene omnibus noti Fachr-Aldini Alrasi (nat. anno 543, mort. anno 606 Hedjr.) depromsi, quae debent esse regis, propriae res tractantur et ratio, qua cum populo jungitur (p. 84-96).

Secundo (p. 97-138) ex libro Cemal-Aldini (nat. anno 588, mort. anno 660 Hedjr.) Subdat-Alhalab min Tarich-Halab inscripto, cujus priorem partem in libro

Digitized by Google

runt exempla, ea in lexicis ubicunque obvia sunt quaerentibus. Sequuntur paragrapho secunda verbi regularis, coniugationum, quas dicunt, formae, tertia verbi regularis tribus litteris compositi temporum, modorumque personae, quarta eadem coniugationum exempla. A quinta usque ad nonam verborum irregularium exempla leguntur, paragrapho autem decima et undecima verborum duplici modo irregularium. Paragrapho duodecima verbum ليس et quae laudandi, vituperandi, admirandi a grammaticis appellantur verba, exposita sunt. Paragraphus decima tertia et sequentes nominibus tum a verbo primitivo tum a coniugationibus et verbis irregularibus derivandis concessae sunt. In paragrapho decima sexta nomina, quae a grammaticis vicis, speciei, temporis etc. appellantur, proposita sunt, in paragrapho decima septima adiectivi et comparandi formae inveniuntur. Paragraphis autem decima octava et decima nona participiorum tum activi tum passivi verbi formae continentur, ultimum formarum locum a paragrapho vicesima usque ad finem pluralium irregularium seu nominum collectivorum exempla tenent.

Non autem sum nescius, in illis a me propositis exemplis inde tironibus intelligendi quandam difficultatem oriri, quod a reliquo sermone disjuncta inter se non sint connexa. Quae quidem res, quanquam nobis molesta, tamen summa cura non prorsus evitari potuit, magistrorum autem auxilio aut omnino tollitur aut saltem diminuitur.

Tum grammaticae formis studiose diligenterque

Digitized by Google

taedium movet, ei a legendis scriptoribus aut est abstinendum, aut minus, quam decet, praeparato accedendum.

Prior enim ille discendi modus quantum in se habeat molestiae et quam parum conveniat in Academiis nostris adhibendae docendi rationi, nemo non videt. Huc accedit, ut studiis hisce, quorum tum utilitatem tum difficultatem pauci tantum praesentiant, neque otii neque laboris satis concedatur. Alter vero discendi modus quum vel docenti vel discenti multum affert molestiae, tum id incommodi dat, quod illius linguae studiosus, nisi, quas formarum quasi oras leviter tantum praetervectus sit, eas denuo revisens, ut earum effigies memoriae tabulae et accuratius et firmius imprimat, postea laboraverit, doctrinae solidiore fundamento carens in minimis offendat, in multis graviter labatur.

Cui ut mederer duplici incommodo, multa a me e scriptoribus collecta formarum exempla in ordinem grammaticae accomodatum redegi, ut, si quis, memoriae inter legendum singulas grammaticae regulas mandans via praescripta paulatim progressus esset, brevi ad intelligendos scriptores scitu maxime necessarias grammaticae partes animo teneret.

Primum ut, quae essent grammaticae partes, tirones cognoscerent, verborum, nominum particularumque exempla proposui, ad quae interpretanda nil nisi declinationum, quas appellant grammatici regulares, atque pronominum notio requiritur, quae enim verborum quum transitivorum tum intransitivorum occur-

Digitized by Google

Litterarum Arabicarum Studiosis
Fautoribus Patronis

S. P. D.

G. W. Freytag *Dr.*

Praeclare mihi egisse videntur, qui, ut linguae Arabicae studium promoverent, tironum usui accommodatos libros ediderunt, ut enim, viam si quis falsam ingressus fuerit, aut nunquam aut serius ad locum sibi propositum longis ambagibus multum fatigatus perveniet, sic in linguae Arabicae studio male instituta discendi ratio damno nunquam carebit. Sunt enim, qui nonnisi hanc ob causam aut spe felicis successus abiecta, a via facienda citius deterreantur, aut, si maiore animi vi praediti discendi ardore impellantur vel serius vel nunquam linguae Arabicae accurata atque profunda cognitione potiantur. Qua vero in re quum multis iisque praeclare et summa cura editis libris discendi difficultas neque omnino tolli queat, neque satis diminuta videatur, timendum non esse videtur, ne, quo caeteris novum adiumentum addere ausus sim, opusculum hoc meum tanquam superfluum respuatur.

Maximum autem in discenda lingua Arabica in eo positum videtur impedimentum, quod, qui magnam formarum e grammatica non edidicit partem, id quod multum molestum, nisi varietate mitigatur, discentibus

Digitized by Google

CHRESTOMATHIA ARABICA

GRAMMATICA HISTORICA

IN

USUM SCHOLARUM ARABICARUM EX CODICIBUS INEDITIS

CONSCRIPTA

A

Georg. Guil. Freytag *Dr.*
Profess. litterar. Oriental. publ. ordin.

BONNAE AD RHENUM
TYPIS REGIIS ARABICIS IN OFFICINA F. BAADENI.
VENDITUR LIPSIAE APUD C. CNOBLOCH
MDCCCXXXIV.

Digitized by Google

Digitized by Google

15 X 76

Digitized by Google

29 ⅞ 324
Freytag

יהוה

ANDOVER-HARVARD LIBRARY
AH 57TW E

Digitized by Google